دكتور محمد حسن شرشر

دراسات بلاغية
في
القرآن الكريم والحديث الشريف

الطبعة الأولى
١٣٩٩ هـ — ١٩٧٨ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا .

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، الذى آتاه الله جوامع الكلم ، وفصل الخطاب وبعد .

فقد سمت العناية بالدراسات البلاغية ببزوغ شمس الإسلام . لأن القرآن الكريم ، معجزة الرسول ﷺ الخالدة ، حجة بيانية .

وقد اقتضت الموازنة بين أسلوبه ، والأساليب الأخرى التنبيه إلى جمال اللفظ ، وشرف المعنى ، والتأمل فى صور البيان .

هذا . والكلام عن معانى القرآن ، ومجازه ، وسر إعجازه ، والحديث الشريف ، وجميل بيانه ، يتطلب الفكر القويم ، والعلم الوفير ، والإحساس المرهف ، والذوق السليم .

ومن ثم ، فقد آثرت أن أذكر مشيدا بعض الجهود الطيبة لصفوة مختارة ، من أرباب الفكر ، وأساطين البيان ، من المتقدمين ، والمعاصرين الذين تحدثوا عن البلاغة القرآنية والنبوية حديثا يبهر العقول ، ويأسر القلوب ، بما وهبهم الله ، من بيان خلاق ، وعبقرية فذة ، وذكاء نادر ، وحكمة رشيدة .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون لنا ذخرا يوم الدين ؟

المعادى فى ١٣ من المحرم سنة ١٣٩٩هـ ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٧٨م

محمد حسن شرشر

إعجاز القرآن

إعجاز القرآن

لم يحدث فى تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعتنت بكتابها السماوى ، كما اعتنت هذه الأمة المحمدية ، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية ، والإجلال والإكبار ، كما ناله هذا الكتاب المجيد ، معجزة محمد عليه الصلاة وأزكى السلام الخالدة ، وحجته البالغة ، ودعوته إلى الناس أجمعين .

ولا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة ، ويحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة ، ذلك لأن الأحداث التى رافقت نزول هذا الكتاب المقدس ، تجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية ، ويفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح .

وقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات ، والدلائل الواضحات ، والحجج والبراهين الساطعة التى تدل على صدقهم ، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير .

وقد خص الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بالمعجزة العظمى « القرآن الكريم » ذلك النور الربانى ، والوحى السماوى الذى ألقاه على قلب نبيه قرآناً عربياً غير ذى عوج ، يتلوه آناء الليل ، وأطراف النهار . والذى أحيا به أجيالا من العدم أحياها بنور القرآن ، وهداها أقوم طريق ، وانتشلها من الحضيض فجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وصدق الله حيث يقول : « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها . كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون »(١) .

---

(١) الأنعام ١٢٢

وإذا كانت معجزة الأنبياء السابقين « حسية » تتناسب مع العصر والزمان الذى بعثوا فيه كمعجزة « موسى » عليه السلام حيث كانت « اليد والعصا » لأنه بعث فى زمن كثر فيه السحرة واشتهر فيه السحر ، وكذلك معجزة « عيسى » عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه(١) والأبرص ، لأنه بعث فى عصر كثر فيه الطب والحكمة ، وظهر فيه الأطباء البارعون ، فأتاهم عيسى بن مريم بما أدهشهم ، وأعجزهم ، من شفاء المرضى ، وإحياء الموتى .

فإن معجزة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه معجزة « روحية عقلية » . وقد خصه الله بالقرآن معجزة العقل الباقى على الزمان ، ليراها ذوو القلوب والبصائر ، فيستنيروا بضيائها وينتفعوا بهديها فى الحاضر والمستقبل .

وإنما كانت معجزته « عقلية خالدة » لأن رسالته خاتمة الرسالات ، فهى خالدة خلود الدهر باقية بقاء الإنسان(٢) .

يقول الشيخ محمد البنا : « وإذا كانت قد جرت خوارق للعادات على يد النبى ﷺ غير القرآن كما ورد فى صحاح السنة ، فإن النبى ﷺ لم يتحد بها ، بل كان التحدى بالقرآن وحده ، ولهذا كان القرآن معجزة الرسول التى تؤيد رسالته ، وتشرق فى قلوب الذين اتبعوه من المؤمنين .

ورسالة النبى ﷺ شاملة خالدة ، لأنها خاتمة الرسالات ، فكانت الحكمة أن تتفق معجزته مع نوع رسالته ، إذ كان كل نبى سبق كان يأتى برسالة لقوم بأعيانهم وتنتهى بما يأتى بعدها من الرسالات . ولم يكن من

---

(١) الأكمه : الأعمى .
(٢) أنظر التبيان فى علوم القرآن ٨٧ - ٩٠

الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمرا حسيا يراه جماعة حين يقع ، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى انقضى ذلك الأمر المحسوس ، ولا يراه أحد من بعده ، لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة ، ولا مع خلودها ، لقد كان القرآن ، معجزة الناس جميعا ، ولذلك جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية ، وارتقى الفكر الإنسانى ، لأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وافت البشرية بعد أن أدركت إرشدها وتكامل النمو العقلى فى مجموعها ، فكانت معجزته تدرك « بالعقل » ولا تحتاج إلى أى نوع من الحس ، فهى معان خالدة ، يدرك سموها الإنسانى فى كل الأجيال . وهى معجزة يخاطب بها الناس جميعا(١) .

---

(١) الكتاب والسنة ص ٢٢ — عن كتاب التبيان فى علوم القرآن .

المقصود بإعجاز القرآن

الإعجاز فى اللغة العربية هو نسبة العجز إلى الغير . قال تعالى : « أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوأة أخى »(١) .

وتسمى « المعجزة » معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، لأنها أمر خارق للعادة ، خارج عن حدود الأسباب المعروفة .

وإعجاز القرآن معناه « إثبات عجز البشر — متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله » .

وليس المقصود من « إعجاز القرآن » هو تعجيز البشر لذات التعجيز ، أى تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل .

وإنما الغرض إظهار أن هذا الكتاب حق ، وأن الرسول الذى جاء به رسول صادق .

وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التى يعجز البشر عنها ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم ، وإثبات أن ما جاءوا به إنما هو بوحى من الحكيم العليم ، وتنزيل من الإله القادر ، وأنهم إنما يبلغون رسالات الله ، وليس لهم إلا الإخبار والتبليغ .

فالمعجزات إذاً براهين من الله سبحانه إلى عباده ، بصدق رسله وأنبيائه فكأن الله تعالى بهذه المعجزة — يقول : « صدق عبدى فيما بلغ عنى ، وأنا أرسلته ليبلغكم ذلك ، والدليل على صدقه أن أجرى على يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتى بمثله ، ومما ليس بمقدور أحد أن يجاريه فى مثل هذا الأمر العجيب هذا هو معنى الإعجاز ، وذلك هو مفهوم المعجزة(٢) .

---

(١) المائدة آية ٣١ (٢) التبيان فى علوم القرآن ٩١

هذا ، وللمرحوم « الشيخ الزرقانى » كلام نفيس فى تعريف المعجزة .

يقول رحمه الله « المعجزة : هى أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلقه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إياها ، شاهدا على صدقه .

بمعنى أنه إذا قام إنسان ما ، وادعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه ، ورسوله إلى عباده ، وقال إن آية صدقى فيما أدعيه ، أن يغير الله الذى أرسلنى عادة من عاداته على يدى وأن يخرج الآن عن سنة من سننه العامة فى وجوده .

ثم قال : وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجاب ، من باب ترون أنكم فيه نابغون ، وعليه قادرون ، وإنى أتحداكم زرافات ووحدانا أن تأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامكم الباب مفتوحا ، كما تعتقدون وفيكم النبوغ موفورا كما تدعون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدى .

قال ذلك بلغة الواثق ، وتحدانا هذا التحدى الظاهر فى وقت يثور فيه على عقائدنا ، وعاداتنا وأخلاقنا ، ويسفه فيه أحلامنا ، وأحلام أمثالنا من آبائنا .

ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه ، وتبهيته ، والغلبة عليه . والظفر به ، دفاعا عن كرامتنا ، وانتصارا لأعز شىء لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقمنا ، وأجمع أمره وأجمعنا ، وإذا نحن جميعا بعد محاولات ومصاولات لم نستطع أن نأتى بمثل ما أتى به فضلا عن أعظم منه مع أننا أمة وهو فرد ، ومع أنه قد دخل إلينا من أيسر الطرق فى نظرنا ، ومن أشهر فن فى زماننا ، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظراته ، وأنصفنا كل إنصاف من نفسه .

هل يشك كل ذى مسكة(١) من عقل ، فى أن هـذا الانسان المتفوق الممتاز صادق فى رسالته ، ومحق فى دعوته ، خصوصا إذا عرفنا فوق ذلك كله أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق من لدن صباه وطفولته إلى يوم مبعثه ورسـالته لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه لقلنا رجل حذق فنا من الفنون التى لا علم لنا بها ، أو تعلم صناعة من الصناعات التى لم نحط بخبرها ، أما وقد جاءنا من الناحية التى نشهد لأنفسنا فيها بالتفوق والسبق ، فلا يسعنا إلا الاذعان له ، والإيمان بما جاء به ما دمنا منصفين .

ولنضرب لك مثلا : جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصا من الخشب ، لا روح فيها ولا حركة ، ولا لين ولا رطوبة ، ثم ألقاها باسم الذى أرسله ، فاذا هى حية تسعى ، بينما الأمة التى تحداها بذلك كانت قد تفوقت فى السحر وحذقته ، وضربت فيه بأوفى سهم ، وأوفى نصيب ، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد ، وهم نابغون فى السحر ، وهو مع نشأته فيهم لم يعرف يوما من الأيام بمعالجة السحر فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون « فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون »(٢) .

الحق أبلج ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لأنهم أعرف بالسحر ، ومقدماته ونتائجه ، وقد رأوا رأى العين أن ذلك الاعجاز ليس من نوع السحر الذى عرفوه .

قل مثل ذلك فى معجزة كل رسول أرسله الله ، قله فى عيسى بن مريم

---

(١) مسكة : بقية .
(٢) الأعراف الآيات ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

عليه السلام ، وإبرائه الأكمة والأبرص ، وإحيائه الموتى بإذن الله ، أمام قوم نبغوا فى الطب أيما نبوغ ، ومهروا فيه أيما مهارة .

وقل مثل ذلك وأكثر فى خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ، وما جاء به من آيات بينات ، ومعجزات واضحات ، وحسبك القرآن وحده برهانا ساطعاً ، بل براهين ساطعات كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم فى فم الدنيا إلى يوم الساعة تتحدى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة ، والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنباء الغيب ، وشواهد الحق(١) .

على أنه يلاحظ أن معجزات القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين ، المعجزات الرسل خرقت النواميس وتحدت وأثبتت أن الذى جاءت على يديه رسول صادق من الله .

ولكنها معجزات كونية ، من رآها فقد آمن بها . ومن لم يرها صارت عنده خبرا ، إن شاء صدقه ، وإن شاء لم يصدقه ، ولو لم ترد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث ، إذا فالمعجزة الكونية المحسه ، أى التى يحس بها الانسان ويراها تقع مرة واحدة ، من رآها فقد آمن بها ، ومن لم يرها تصبح خبرا بعد ذلك :

ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم معجزة عقلية باقية خالدة ، يستطيع بها كل واحد أن يقول : محمد رسول الله . وهذه معجزته وهى القرآن .

شىء آخر إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة ، وجدنا هذه المعجزات فعل من أفعال الله ، وفعل الله من الممكن أن ينتهى بعد أن يفعله الله ، البحر انشق لموسى ، ثم عاد إلى طبيعته .

---

(١) مناهل العرفان حـ١ ص ٧٣ - ٧٦ ط الحلبي .

النار لم تحرق إبراهيم ولكنها عادت إلى خاصيتها بعد ذلك ولكن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم : صفة من صفات الله وهي كلامه ، والفعل باق ، بإبقاء الفاعل له ، والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه .

ويلاحظ أيضا فى معجزة القرآن أنها اختلفت عن معجزات الرسل اختلافا آخر .

كل رسول كانت له معجزة ، وله كتاب منهج . . معجزة موسى العصا ، ومنهجه التوراة ، ومعجزة عيسى الطب ، ومنهجه الإنجيل ولكن رسول الله ﷺ معجزته هو عين منهجه . ليظل المنهج محروسا بالمعجزة ، وتظل المعجزة فى المنهج .

ومن هنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة فى نطاق التكليف . . بمعنى أن الله سبحانه وتعالى كان يكلف عباده بالمحافظة على الكتاب .

أما القرآن : فقد قال الله سبحانه وتعالى عنه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

هذا وقد جاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بهذا القرآن العظيم متحديا أئمة الفصاحة ، وفرسان البلاغة بصور متعددة ، وأساليب متنوعة .

تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا وولوا الأدبار مع أنهم فرسان الفصاحة وملوك البيان .

يقول سبحانه « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »(٢)

---

(١) الحجر ٩ — أنظر معجزة القرآن للشيخ متولى الشعراوى ٩ ، ١٠
(٢) الطور ٣٤

فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله «أم يقولون افتراه . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون »(١) .

فعجزوا أيضاً ، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله . وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين «فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا . فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »(٢) .

فعجزوا كذلك ولم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الميدان وبذلك سجل عليهم القرآن العجز والهزيمة ، وثبتت معجزة محمد النبى الأمى على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »(٣) .

هذا ويقول القرطبي رحمه الله فى تفسيره لأحكام القرآن وقوله : «فإن لم تفعلوا » يعنى فيما مضى «ولن تفعلوا » أى تطيقوا ذلك فيما يأتى ... وفى قوله «ولن تفعلوا » إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم «ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها(٤) .

---

(١) هود ١٣ ، ١٤

(٢) البقرة آية ٢٣ ، ٢٤

(٣) الشعراء ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

(٤) تفسير القرطبي دار الشعب ٢٠١ والتبيان فى علوم القرآن ٩٥

هذا . ولم يكن التحدى للعرب وحدهم بل كان عاما للإنس والجن . ولكن أنى لهم أن يأتوا بمثله وصدق الله إذ يقول : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا(١) .

* * *

---

(١) الإسراء ٨٨

وجوه إعجاز القرآن

لإعجاز القرآن وجوه كثيرة :

من أهم هذه الوجوه :

نظم القرآن

فقد جاء كتاب الله بديع النظم ، عجيب التأليف . متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلائق عنه (١) .

فالقرآن الكريم لايشبهه شيء فى نظمه ، لا من شعر ، ولا من نثر ، وذلك بشهادة أساطين البلاغة ، وأئمة الفصاحة والبيان .

روى أن الوليد قال لبنى مخزوم ، والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الانس، ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر . وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى (٢) .

هذا وأسلوب القرآن رائع خلاب يبهر العقول برونقة وجماله وعذوبته وحلاوته ، وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة بين علو ونزول ، واتساع وانقباض ، وحركة وجمود ، وحضارة وبداوة ، والقرآن فى كل هذه الأدوار واقف فى عليائه ، يطل على الجميع من سمائه ، وهو يشع نورا وهداية ، ويفيض عذوبة وجلالة ،

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ـ دار المعارف ٣٥ .
(٢) الكشاف جـ ٤ صـ ٥١٩ .

ويسيل رقة وجزاله . ويرف جدة وطلاوه ، ولا يزال كما كان غضا طريا ، يحمل راية الاعجاز ، ويتحدى أمم العالم فى يقين وثقة . قائلا فى صراحة الحق وقوته ، وسلطان الاعجاز وصولته ، قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هــــذا القرآن . لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) .

كما أن للقرآن الكريم مسحة خلابة تتجلى فى نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى . ونريد بنظام القرآن الصوتى اتساق القران ، وائتلافه فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكناته ، اتساقاً عجيبا ، وائتلافا رائعا ، يسترعى الأسماع ، ويستهوى النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور .

ونريد بجمال القرآن اللغوى ، تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى وصف حروفه ، وترتيب كلماته ، ترتيبا دونه كل ترتيب تعاطاه الناس فى كلامهم . ولقد وصل هذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل فى القرآن شىء من كلام الناس لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى ، وذلك النظام الصوتى أنهما كما كانا دليل أعجاز من ناحية كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى .

وذلك أن من شأن الجمال اللغوى ، والنظام الصوتى أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ، ويحرك داعية الاقبال فى كل إنسان . إلى هذا القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخالق وفى آذانهم ، ويعرف بذاته ، ومزاياه بينهم ، فلا يجرؤ أحد على تغييره ، وتبديله مصداقاً

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ط الحلبى

لقوله سبحانه « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »(١) .

وإلى جانب ذلك ففيه الإعجاز الرائع ، والجزالة الخارقة التى ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها ، أو يأتى بمثلها لأنها فوق طاقة البشرية ، والقدرة الإنسانية . لقد كان البدوى راعى الغنم يسمع القرآن فيخر ساجدا لله رب العالمين ، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد ولتأثيره فى نفوس السامعين .

يروى أن « الأصمعى » خرج ذات يوم فلـــقى جارية خماسية أو سداسية(٢) . وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر رائعة ، فأعجب بتلك الأبيات ، وهزت منه النفس والقلب ، بجمال أسلوبها ، وروعة بيانها ، وفصاحة ألفاظها فقال لها : قاتلك الله ، ما أفصحك ؟ !

فقالت له : ويحك أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين »(٣) .

ثم قالت له : فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قال الأصمعى . فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر مما أعجبت بشعرها ، فهى جارية بدوية صغيرة السن ، ولكنها واسعة العلم والفهم .

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص٢٠٨
(٢) أى طولها خمسة أو ستة أشبار .
(٣) القصص ٧

وقد أشارت هذه الجارية على الأصمعى بروعه ما فى القرآن من بلاغة وفصاحة ، وإيجاز وإعجاز .

والآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما « أرضعيه ، و ألقيه فى اليم » ، ونهيين وهما : « لا تخافى » ، و « لا تحزنى » وخبرين وهما : « أوحينا » و « خفت » وبشارتين وهما : « إنا رادوه إليك » و « جاعلوه من المرسلين » فالبشارة الأولى برده إليها سليما كريما ، والبشارة الثانية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولا هاديا ، فانظر — رعاك الله — كيف أدركت هذه البدوية ، بفطرتها العربية ، سرا من أسرار هذا الإيجاز والإعجاز ، وانتبهت إلى مالم يدركه هو من أسرار القرآن ، فكأن الآية نظمت فى عقد من اللؤلؤ والمرجان فكانت لآلئها بميزان(١) .

ومن ثم فإن لأسلوب القرآن الكريم خصائص نجملها فيما يلى :

الخاصة الأولى : مسحة القرآن اللفظية ، التى تتجلى فى نظامه الصوتى وجماله اللغوى .

الخاصة الثانية : إرضاؤه العامة والخاصة ، بمعنى أن الجميع يحسون بجلاله ويشعرون بروعته .

الخاصة الثالثة : إرضاؤه العقل والعاطفة معا ، فالقرآن يخاطب العقل والقلب ، ويجمع الحق والجمال معاً .

الخاصة الرابعة : جودة سبك القرآن ، وإحكام سرده ، فكأنه سبيكة واحدة تبهر العقول ، وتأخذ بالأبصار .

---

(١) التبيان فى علوم القرآن ١١٤

الخاصة الخامسة : براعته فى تصريف القول ، وتفننه فى ضروب الكلام . بمعنى أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى ، وطرق مختلفة ، وكلها رائعة فائقة .

الخاصة السادسة : جمع القرآن بين الإجمال والبيان .

الخاصة السابعة : الوفاء بالمعنى مع القصد فى اللفظ(١) .

* * *

(١) أنظر مناهل العرفان للزرقانى جـ ٢ ص ٣٠٩ — ٣٢٤ ط الحلبى .

الاخبار عن المغيبات

الاخبار عن المغيبات ، وجه من وجوه الإعجاز ، للقرآن الكريم ، وبرهان ساطع على أن هذا القرآن ليس من كلام بشر ، وإنما هو كلام علام الغيوب ، الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

اشتمل القرآن الكريم على أخبار كثيرة من الغيوب التى لا علم لمحمد ﷺ بها ، ولا سبيل لمثله أن يعلمها ، مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب ، لا يعقل أن يكون نابعا من نفس محمد ، ولا غير محمد من الخلق ، بل هو كلام من يملك زمام العالم «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر»(١) .

من ذلك قصص عن الماضى البعيد ، المتغلغل فى أحشاء القدم ، وأخبار عن الحاضر الذى لا سبيل لمحمد إلى رؤيته .

ومعرفته فضلا عن التحدث به ، وأخبار عن أمور تقع فى المستقبل الغامض الذى انقطعت دونه الأسباب .

وسر الإعجاز فى ذلك كله أنه وقع كما حدث ما تخلف ، وجاء على النحو الذى أخبر به فى إجمال ما أجمل . وتفصيل ما فصل .

غيب الماضى :

لقد أخبرنا القرآن الكريم ، بما حدث للأمم السابقة ، وروى لنا قصص

---

(١) الأنعام ٥٩ .

الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام ، وهذه القصص الرائعة التي يفيض بها كتاب رب العالمين ، لم يكن لعلم محمد بها من سبيل .

من تلك القصص :

قصة نوح التي قال الله فيها : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك .

ما كنت تعلمها أنت ، ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين(١) .

وقصة موسى التي يقول الله فيها « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين .

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »(٢) .

وقصة مريم . وفيها يقول تعالى : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ، أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون »(٣) ؛

هذا ووجه الإعجاز في الماضي ، وقصصه ، أن النبي ﷺ نشأ أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب حتى يعلم بالتلقين

---

(١) هود ٤٩ .

(٢) القصص الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) آل عمران ٤٤ = انظر مناهل العرفان جـ٢ ص٣٦٧ .

عليهم، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان، إلا أن يكون علم الفطرة والبيان، وارهاف احاسيسهم بالشعر والكلام البليغ، وتذوق الكلمات والمعانى(١).

وصدق الله إذ يقول: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون»(٢).

غيب الحاضر:

أما عن غيب الحاضر، الذى لم يكن لرسول ﷺ سبيل إلى العلم به. فمنه ما أخبر الله تعالى به عن المنافقين فى عصر رسول الله ﷺ، عما كان قائما بهم. وخفى أمره عليه «صلوات الله وسلامه عليه»، كقوله تعالى:

«ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما فى قلبه، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد»(٣).

وكقوله جل شأنه فى مسجد الضرار الذى بناه المنافقون: «والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا، وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم الكاذبون»(٤).

---

(١) المعجزة الكبرى ص ٣٠٩.
(٢) العنكبوت ٤٨. (٣) البقرة ٢٠٤، ٢٠٥
(٤) التوبة ١٠٧.

غيب المستقبل :

أخبر القرآن الكريم عن حرب ستقع بين الروم والفرس — فى بضع سنين — وأن الغلبة فيها ستكون للروم ، بعد أن هزموا فى الحروب السابقة .

قال تعالى : « الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء . وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لايعلمون »(١) .

وبيان ذلك : أن دولة الروم ، وهى مسيحية ، كانت قد هزمت ، أمام دولة الفرس ، وهى وثنية ، فى حرب طاحنة بينهما ، فحزن المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية ، وفرح المشركون ، وقالوا للمسلمين فى شماتة العدو : إن الروم يشهدون أنهم اهل كتاب ، وقد غلبهم المجوس .

وأنتم تزعمون انكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم .

فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار فى بضع سنين . اى فى مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع .

---

(١) الروم الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

ولم يكن مظنونا وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس فى هذه المدة الوجيزة ، بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها ، لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت فى عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم « فى أدنى الأرض » .

ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة ، وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة ، حتى أنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة ، أو تقوم لهم قائمة ، راهن بعض المشركون أبا بكر رضى الله عنه على تحقق ما جاء به القرآن .

ولكن الله تعالى أنجز وعده ، وتحققت نبوءة القرآن فى السنة الثانية من الهجرة المحمدية .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى ، وهى البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز فى هذا الوقت الذى ينتصر فيه الروم » ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

وصدق الله وعده فى هذه ، كما صدق وعده فى تلك . وكان ظفر المسلمين فى غزة بدر الكبرى واقعا فى الوقت الذى ظفر فيه الروم .

وهكذا تحققت النبوءتان فى وقت واحد ، مع تقطع الأسباب فى انتصار الروم — كما علمت — ومع تقطع الأسباب ايضا فى انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة ، لأنهم كانوا فى مكة فى صدر الإسلام ، والمسلمون حينئذ قلة ، يضطهدهم المشركون ، ولا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة ، ولكن على رغم هذا الاستبعاد ، نزلت الآيات - كما ترى - تؤكد البشارتين ، وتسوقهما فى موكب من التأكيدات البالغة(١) .

---

(١) مناهل العرفان ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠

سبحانك ربى : أيستطيع محمد ﷺ أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس ، بعد بضع سنين .

هل يستطيع قائد عسكرى مهما بلغت قوته وعبقريته ونبوغه أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها .

فما بالك أن ذلك يأتى ، ويقول إنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم .

هل أمن محمد ﷺ على نفسه أن يعيش بضع سنين ليشهد هذه المعركة . ولقد وصل الأمر بأبى بكر رضى الله عنه — كما علمت — أنه راهن على صحة ما جاء بالقرآن .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس . أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم ، أ كان بعد ذلك يصدق أى إنسان القرآن ، أو يؤمن بالدين الجديد .

ثم إذا كان القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ، فما الذى يجعله يدخل فى قضية غيبية كهذه .. لم يطلب أحد منه الدخول فيها . أيضيع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد ، ولم يتحده فيها إنسان ، ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله ، ومن هنا كان هذا الأمر الذى نزل فى القرآن يقينا سيحدث . لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان .. وحجاب المكان .. ولا أى حجاب .. وهو الذى يقول ما يفعل .. ومن هنا حدثت الحرب .. وانتصر الروم على الفرس فعلا ، كما تنبأ القرآن(١) .

ومن ذلك — أيضاً — قوله تعالى فى سورة القمر المكية : « أم يقولون

---

(١) معجزة القرآن ٢١ ، ٢٢ .

نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر »(١) .

فقد أخبر القرآن عن هزيمة المشركين وفى وقت لا مجال فيه لفكرة الحرب ، فضلا عن التقاء الجمع ، وانتصار المسلمين .

والجهاد — كما تعلم — لم يفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة إنه إخبار بمغيب لم يكن إلا فى علم الله تعالى .

روى عن عكرمة أنه قال : لما نزلت هذه الآية « سيهزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر بن الخطاب أى جمع هذا الذى سيهزم ؟

فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ ، وهو يثب فى الدرع ، ويقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » عرف تأويلها(٢) .

ومن الاخبار عن المغيبات — كذلك — ما أخبر به القرآن الكريم من أن الرسول ﷺ ، وأصحابه — وقد كانوا بالمدينة — سيدخلون مكة محلقين رءوسهم ومقصرين إذ قال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريباً »(٣) .

وقد أنجز الله وعده ، فتم الأمر ، ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين .

---

(١) القمر ٤٥ ، ٤٦
(٢) الكشاف جـ ٤ ص ٣٥٠
(٣) الفتح ٢٧

هذا ومن عجائب « الاخبار عن المغيبات » أن القرآن الكريم عرض لتعيين بعض أحداث جزئية ، تقع فى المستقبل لشخص معين ، ثم تحقق الأمر كما أخبر .

هذا هو الوليد بن المغيرة المخزومى يقول الله فيه : « سنسمه على الخرطوم » أى سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان .

ففى غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف ، أى ضرب به أنفه . وبقى أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له .

والوليد بن المغيرة هو الذى نزل فيه قوله تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر »(١) .

وقوله جل شأنه : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم »(٢) .

ثم أنظر بربك : رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى فيقرأ : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ،

---

(١) المدثر الآيات من ١١ — ٢٦

(٢) القلم الآيات من ١٠ — ١٦
أنظر مناهل العرفان ٣٨٠

وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد »(١) .

هذا قرآن . . . وفى من ؟ فى عم الرسول . . . وفى من ؟ فى عدو الإسلام .

ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه السورة . ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن . ضد هذا الدين . قالت له الآية : يا أبا لهب أنت ستموت كافرا . . ستموت مشركا ، وستعذب فى النار . وكان يكفى أن يذهب أبو لهب إلى أى جماعة من المسلمين ، ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . . يقولها نفاقا . . يقولها رياء . . يقولها ليهدم بها الإسلام ، لا ليدخل فى الإسلام .

يقولها ثم يقف وسط القوم يقول : إن محمدا قد أنبأكم أنى سأموت كافرا . وقال إن هذا كلام مبلغ له من الله . وأنا أعلن إسلامى لأثبت لكم أن محمدا كاذب . .

ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ فى عقل أبى لهب على الوصول إليه ، بل بقى كافرا مشركا ، ومات وهو كافر .

إن كثيرا من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص . وعمر بن الخطاب ، وغيرهم كانوا مشركين وأسلموا ، فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا . وسيموت وهو كافر . المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو ، وتحداه فى أمر

(١) سورة المسد .

اختيارى . . كان من الممكن أن يقوله . ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث . . لماذا ؟

لأن الذى قال هذا القرآن يعلم أنه لن يأتى إلى عقل أبى لهب تفكير يكذب به القرآن .

هل هناك إعجاز أكثر من هذا(١) .

(١) معجزة القرآن ٩ : ٢٠

وفاؤه بحاجات البشر

جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة ، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان ، وفاء لاتظفر به في أي تشريع . في القديم والحديث .

فالقرآن الكريم هو الذي وضح أصول العقائد ، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب ، وقواعد التشريع الاقتصادي والسياسي والمدني والاجتماعي ، وهو الذي نظم حياة الأسرة والمجتمع ، ووضع أعدل المبادىء الانسانية الكريمة ، ومن مقاصده النبيلة :

إصلاح العقائد عن طريق ارشاد الخلق إلى حقائق المبدأ المعاد . ودعا إلى عقيدة سامية ، واضحة جلية ، عمادها الايمان بالله عز وجل ، والتصديق بجميع أنبيائه ورسله ، والايمان بجميع الكتب السماوية مصداقا لقوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله »(١)

ودعا أهل الكتاب « اليهود والنصارى » إلى كلمة سواء لاانحراف فيها ، ولا التواء . قال تعالى : « قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك بـه شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٢) .

كما جاء بإصلاح العبادات عن طريق ارشاد الخلق إلى مايزكى النفوس ويغذى الأرواح ، ويقوم الارادة ، ويفيد الفرد والمجموع .

---

(١) البقرة الآية ٢٨٥
(٢) آل عمران ٦٤

فقد جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائمها ، فشرع الصلاة ، والصيام ، والحج والزكاة ، وسائر أعمال البر والطاعة ، وليست العبادة فى الاسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان ، بل تشمل كل عمل خير يقصد به الانسان وجه الله .

وفى مجال « التشريع العام » نجد القرآن الكريم قد وضع قواعد عامة فى التشريع المدنى ، والجنائى ، والسياسى والاقتصادى ووضـــع أسسا للتعامل الدولى فى حالتى السلم والحرب ، على أكمل وجه وأعدل نظام .

ففى امر المعاملات حرم القرآن أكل اموال الناس بالباطل « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »(١)

ودعا الى الاستشهاد عند ابرام البيع ،وكتابة الدين « ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل »(٢)

وفى الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود ، وأوجب على الامة تنفيذها من اجل حماية المجتمع ، وصيانته من الفوضى والاضطراب ، وتأمين الامة على حياتها ومستقبلها . وأموالها وأعراضها لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التى لن تكون إلا عن طريق الامن والاستقرار .

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم واعظمها خطرا على مستقبل الفرد والجماعة ، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة ، لايجوز الزيادة عليها ، أو النقصان منها ، أو التساهل فى تطبيقها وترك ماسوى ذلك من الجرائم

---

(١) النساء ٢٩
(٢) البقرة الآية ٢٨٢

الاخرى ، فالحاكم المسلم ، ينفــــذ فيها ماير اه من العقوبة ، على ضوء السنة النبوية المطهرة ، وبالشكل الذي يحقق روح الاسلام من ارادة الخير للناس وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية .

أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمسة : القتل ، والزنا ، والسرقة ، وقطع الطريق ، والاعتداء على كرامة الناس بالقذف »

هذا ولعل أروع مثل للمقارنة بين « التشريع الالهي القرآني » وبين « التشريع الوضعي » الذي هو من صنيع البشر : ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم ، وجعلهم خير أمة اخرجت للناس ، فملكوا الدنيا ، وسادوا العالم(١)

وإلى جانب ذلك ، فإننا نجد كتاب رب العالمين يدعو إلى : اصلاح الأخلاق : عن طريق ارشاد الخلق الى الفضائل وتنفيرهم من الرذائل . وإلى القصد والاعتدال ، والوقوف عند حد وسط ، لا افراط فيه ، ولا تفريط .

واصلاح المجتمع بإرشاد الخلق الى توحيد صفوفهم ، ومحو العصبيات والفوارق التي تباعد بينهم ، وذلك باشعارهم أنهم جنس واحد ، من نفس واحدة ، أبوهم آدم ، وامهم حواء ، وأنه لافضل لأحد على احد الا بالتقوى والعمل الصالح . وانهم متساوون امام الله ودينه وتشريعه ، متكافئون في الأفضلية ، وفي الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات . وان

---

(١) انظر التبيان في علوم القرآن صـ ١١٩

الاسلام عقد اخاء بينهم أقوى من اخاء النسب والعصب . وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ، ولسان كتابه « لغة العرب » . وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ، ولا تفرقها الحدود الاقليمية ، ولا الفواصل السياسية والوضعية «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »(١)

وإصلاح الحكم الدولى عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ، ومراعاة الفضائل فى الحكم الأحكام والمعاملات من الحق ، والعدل والوفاء بالعهود ، والرحمة ، والمواساة ، والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود ، والكذب والخيانة والفسق ، وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات .

والاصلاح المالى عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ، ووجوب انفاقه فى وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعى المشروع .

والاصلاح الحربى عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الانسانية فى مبدئها وغايتها ، ووجوب التزام الرحمة فيها ، والوفاء بمعاهداتها ، وايثار السلم عليها والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها .

هذا ومما يرفع من منزلة هذا الوجه من اعجاز القرآن أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور وينقبون عما يفى بحاجتهم فى كثير من نواحى حياتهم حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجة بعد طول المطاف وقسوة التجارب أن يرجعوا الى هداية القرآن من حيث يشعرون . أو لا يشعرون .

فقد حرمت أمريكا الخمر أخيرا ولكنها فشلت لإنها لم توفق الى الطريقة

---

(١) المؤمنون ٥٢

الحكيمة التي اتبعها الاسلام في تحريم الخمر . كما أباحت - أيضا - الطلاق ، بعد أن كان ممنوعا لديها بسبب تعاليم الكنيسة ، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة ، ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق .

ويرفع مصلحوا أوربا أصواتهم بضرورة إباحة تعدد الزوجات ، حتى إن بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء ، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الأوربي .

وأصدرت حكومة أسبانيا قرارا بمنع البغاء الرسمي في بلادها ، وبمنع النساء من البروز على الشواطىء في ثياب الاستحمام .

ونادى زعيم فرنسا غداة هزيمتها أمام الألمان في الحرب الأخيرة بأن سبب انهيار دولة فرنسا ، وسبب هزيمتها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية وإسرافهم في المفاسد والمفاتن :

إنه الفرق الشاسع بين تشريع الرحمن ، وتشريع الانسان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون(١)

---

(١) انظر مناهل العرفان ح ٢ ٣٥١ - ٣٥٣

الاعجاز العلمى

هذ . ومما يتصل باعجاز القرآن الكريم ، ما كشف عنه العلم الحديث . وكان قبل ذلك مخبوءا فى ضمير الزمن ، خفيا على المعاصرين لنزول القرآن .

ومن ذلك :

١ — وحدة الكون :

إن أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول . إن الأرض كانت جزءا من المجموعة الشمسية ، ثم انفصلت عنها ، ويبرهنون على صحة هذه النظريه بوجود البراكين ، والمواد الملتهبة فى باطن الأرض .

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم فى قوله جل ثناؤه : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا تؤمنون »(١).

يقول الأستاذ « طبارة » هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذى قرر أن الكون كان شيئا واحدا متصلا من غاز ، ثم انقسم إلى سدائم . وعالمنا الشمس كان نتيجة تلك الانقسامات .

أما القسم الثانى من الآية « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فهو من أبلغ ماجاء فى تقرير حقيقة علمية ، أدرك العلماء سرها ، فمعظم العمليات الكيماوية تحتاج إلى الماء ، وهو العنصر الأساسى لاستمرار الحياة لجميع الكائنات

---

(١) الأنبياء ٣٠ — الرتق : الضم والالتحام . والفتق الفصل بين الشيئين .

والنباتات . وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته .

والماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين ،عندما تكون درجة حرارته منخفضة ، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التى تعيش فى البحار من أسماك وغيرها .

فما أعجب حكمة القرآن الذى يبين بكلمات قلائل سر الحياة

٢ — تقسيم الذرة :

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هى أصغر جزء يمكن أن يوجد فى عنصر من العناصر ؛ وأنها غير قابلة للتجزئة لأنها الجزء الذى لايتجزأ .

ومنذ عشرات السنين الماضية حول العلماء اهتمامهم إلى مشكلة « الذرة » فأمكنهم تجزئتها وتقسيمها ، وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينيه استمع إلى قوله تعالى عنـــد الأخبار عن الذرة (وما يعزب(١) عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، إلا فى كتاب مبين »(٢) .

فكلمة « أصغر من الذرة فى الآية الكريمة ، تصريح جلى بإمكان تجزئتها .

وفى قوله « ولا فى السماء » بيان أن خواص الذرات فى الأرض هى

---

(١) يعزب : يغيب ويختفى
(٢) يونس ٦١

نفس خواص الذرات الموجودة فى الشمس والنجوم والكواكب .

فهل درس محمد ﷺ خواص الذرة ، وأمكنه تجزئتها ، والوقوف على خواصها فى الأرض والسماء .

إنها لدليل قوى على أن القرآن وحى إلهى .

٣ — نقص الأكسجين :

منذ اكتشاف الطيران ظهرت للعلماء بادرة طبيعيه وهى : « نقص الأكسجين فى طبقات الجو العليا » فكلما حلق الإنسان وارتفع فى أجواء السماء كلما أدركته هذه الظاهرة . وشعر عند ذلك بضيق الصدر ، وصعوبة التنفس . حتى ليكاد يشعر بالاختناق .

ومن ثم فإن الطيارين يعطون تعليمات للركاب بأن يستعملوا « الأكسجين الصناعى » حين تعلو بهم الطائرة إلى مرتفعات عالية تزيد عن خمسة وثلاثين ألف قدم .

هذه الظاهرة العلمية أشار إليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران ، وقبل أربعة عشر قرنا . استمع إلى قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا . كأنما يصعد فى السماء »(١) .

لقد جاء هذا العصر فأظهر معجزة القرآن ، وسجل اتفاقا رائعا للآية القرآنية مع الواقع العلمى فكان تأييد الصدق نبوة محمد ﷺ . فلله ما أروع هذا القرآن ، وما أسماه :

---

(١) الأنعام ١٢٥ .

٤ — التلقيح بواسطة الرياح :

أثبت العلم الحديث أن الريح تلقح الأشجار المثمرة .

وهذه الناحية العلمية تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله جل ثناؤه « وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . وما أنتم له بخازنين »(١) .

وهذا سبق للقرآن فى الحقائق العلمية مما يدل على صدق النبوة .

٥ — إختلاف بصمات الإنسان :

وفى القرن الماضى سنة ١٨٨٤ م استعملت إنجلترا رسميا طريقة للتعرف على الشخص بواسطه بصمات الأصابع ، وأصبحت هذه الطريقة متبعة فى جميع البلاد ، ذلك لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة ، وعلى عدة أنواع ، وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة ، وجميع أعضاء الجسم تتشابه أحيانا ، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة إذ أنها لا تتشابه ، ولا تتقارب. وهنا تكون المعجزة فلماذا اختار الله سبحانه بنان الإنسان فى إقامة الدليل على البعث « أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه »(١) .

---

(١) الحجر ٢٢

(٢) القيامة ٣ ، ٤

٦ — نشأة الكون :

وإذا كان العلماء يقررون أن الكون ابتداء خلقه بالسديم وهو يشبه الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ذلك فقال تعالى «ثم استوى إلى السماء ، وهى دخان . فقال لها وللأرض . ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين »(١) .

لقد صور القرآن مصدر خلق هذا الكون «بالدخان» وهو الشىء الذى يفهمه العرب من الأشياء الملموسة .

أيكون فى مقدور محمد النبى الأمى عليه أفضل الصلاة والسلام — منذ أربعة عشر قرنا — أن يدرك هذا فى وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه(٢) .

وبهذه الدراسات العميقة المسلمة بحقائق القرآن . تفتح مغاليق فى العلم ، وتتكشف الحقائق الكونية بهدايه من القرآن على أنه المرشد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع .

وكتاب الله تعالى : هو كتاب الحق ، والصدق ، والعلم ، لأنه من عند الله الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض .

كتاب لا يغادر صغيرة ، ولا كبيرة إلا أحصاها .

هذا وهناك وجوه أخرى للاعجاز القرآنى منها : ما تضمنه من العلم

---

(١) فصلت ١١ .

(٢) أنظر التبيان فى علوم القرآن ١٣١ - ١٣٧ والمعجزة الكبرى ٤٦٨

الذى هو الذى قوام جميع الأنام فى الحلال والحرام وسائر الأحكام .
« ما فرطنا فى الكتاب من شىء »(١) .

وسلامته من التناقض ، والتعارض ، وصدق الله حيث يقول «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا »(٢) .

وصنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، وفى ذلك يقول رب العالمين « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »(٣) .

وغير تلك الوجوه كثير .

هذا . ولا يزال الزمن يكشف عن أسرار اعجاز القرآن الكريم . فكلما تقدم الزمن تجلت نواح عديدة من نواحى اعجازه و قام البرهان القاطع بأنه تنزيل الحكيم الحميد .

ومع ذلك فإن هذه الأسرار التى ذكرها العلماء عن اعجاز القرآن . ماهى إلا قطرة من بحر علوم القرآن .

ومهما اتسع القول ، وعظم البيان ، فإن كلام الله تعالى لايحيط به أحد، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته ، وجليل صفاته(٤) .

---

(١) الأنعام ٣٨ (٢) النساء ٨٢ (٣) الأنفال ٢

(٤) أنظر : مناهل العرفان ٢٣٢ - ٤٠٥ ، وتفسير القرطبى ٦٣ — ٦٦ والتبيان فى علوم القرآن ١٠٣ — ١٤٦ ، والبيان فى اعجاز القرآن والنكت فى اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى الاعجاز .

وأنظر أيضا : المعجزة الكبرى ٧٣ وما بعدها، واعجاز القرآن للباقلانى ٣٣ وما بعدها . ومن بلاغة القرآن ٤٧ ، ومعجزة القرآن ٦ وما بعدها ،ومع القرآن الكريم ٣٠٧ - ٣٢٢ والاتقان فى علوم القرآن ١١٦ - ١٢٥

شبهة القول بالصرفة

ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه اعجاز القرآن هو الصرفه أى « صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز فى بلاغته مستوى طاقتهم البشرية » .

وضربوا لذلك مثلا فقالوا : « إن الإنسان كثيرا مايترك عملا هو من جنس أفعاله الإختيارية ، ومما يقع مثله فى دائرة كسبه وقدرته إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته ، وثبط عزيمته ، وإما لأن حادثاً مفاجئاً لاقبل له به قد اعترضه فعطل آلاته ، ووسائله ، وعاق قدرته قهرا عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه ، وتوجه إرادته إليه .

فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن ، لم ينشأ من أن القرآن بلغ فى بلاغته حد الإعجاز الذى لاتسمو إليه قدرة البشر عادة بل لواحد من ثلاثة :

١ — أن بواعث هذه المعارضة ، ودواعيها لم تتوافر لديهم .

٢ — أن صارفا إلهياً زهدهم فى المعارضة ، فلم تتعلق بها إرادتهم ، ولم تنبعث إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعى

٣ — أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرهم البلاغية وسلبهم أسبابهم العادية على رغم تعلق إرادتهم بها ، وتوجه همتهم إليها .

وينسب هذا القول إلى النظام من المعتزله ، وبالتأمل فى هذه الفروض الثلاثة تعلم أن عدم معارضة القرآن « لم تجىء من ناحية اعجازه — على

هذا الزعم — بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة ولو أنهم حاولوها لنالوها .

وجاءت على الفرض الأخير من ناحية عجزهم عنها لكن بسبب خارجى عن القرآن ، وهو وجود مانع منعهم منها قهراً .

ذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب ، وحفظه إياه ، من معارضة المعارضين ، وإبطال المبطلين ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله ، لأنه لا يعلو على مستواهم فى بلاغته ونظامه .

تفنيد هذا القول

وهذا القول بفروضه التى افترضوها ، أو بشبهاته التى تخيلوها ، لا يثبت أمام البحث ، ولا يتفق والواقع .

أما الفرض الأول :

فينقضه ما سجله التاريخ ، وأثبته التواتر ، من أن دواعى المعارضة كانت قائمة موفورة ، ودوافعها كانت ماثلة وذلك لأدلة كثيرة :

« منها » : أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ، ولو بمثل أقصر سورة منه ، ثم سجل العجز عليهم ، وقال بلغة الواثق : أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ، ولو ظاهرهم الإنس والجن : فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا . ولو كانوا أجبن خلق الله ؟

« ومنها » : أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا ومضرب المثل فى الحمية والأنفة ، وإباء الضيم ، فكيف لا يحركهم هذا التحدى والاستفزاز ؟

«ومنها» أن صناعتهم البيان، وديدنهم التنافس في ميادين الكلام، فكيف لا يظهرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة «ومنها» أن القرآن أثار حفائظهم، وسفه عقول، وعقول آبائهم، ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك. فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتشنيع؟.

«ومنها»: أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم، وعاداتهم المتمكنة منهم فأي شيء يلهب المشاعر، ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا؟

ما دامت هذه المساجلة هي السبيل المتعين لاسكات خصمهم لو استطاعوا.

وأما الفرض الثاني:

فينقضه الواقع التاريخي أيضا. ودليلنا على هذا ما تواترت به الأنباء، من أن بواعث العرب المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم، ونالت منالها من عزائمهم. فهبوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء على دعوة القرآن بمختلف الوسائل. فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه.

لقد آذوه ﷺ، وآذوا أصحابه فسبوا من سبوا، وعذبوا من عذبوا، وقتلوا من قتلوا.

ولقد طلبوا من عمه أبي طالب أن يكفه، وإلا نازلوه وإياه.

ولقد قاطعوه، وقاطعوا أسرته الكريمة، لا يبيعون لهم ولا يبتاعون، ولا يتزوجون منهم ولا يزوجون، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر.

ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد، مفاوضات عدة، وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية. منها: أن يعطوه حتى يكون أكثرهم

مالا ، وأن يعقدوا له لواء الزعامة ، فلا يقطعوا أمراً دونه ، وأن يتوجوه ملكاً عليهم ، إن كان يريد ملكاً ، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن .

كل ذلك فى نظير أن يترك هذا الذى جاء به ، ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم ، فيعبد آلهتهم سنه ، ويعبدون إلهه سنه فأبى أيضاً ، ونزل قول الله :

« قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون(١) » .

ونزلت كذلك « سورة الكافرون » .

ولقد ناصبوه ، كما ناصبوا أصحابه العداء فى عبادتهم . وانبعث شقى منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلى ، كما خنقه طاغية من طواغيتهم، لولا أن أبا بكر رضى الله عنه جاء فدفعه عنه وقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه(٢) » .

ولقد اتهموه ﷺ مرة بالسحر ، وأخرى بالشعر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة بالكهانة ، وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم فيبهتونه ، ويكذبونه أمام من لا يعرفونه .

ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم ، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فراراً إلى الله بدينهم .

(١) الزمر ٦٤ (٢) غافر ٢٨

ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه ، أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم وأمره بالهجرة من بينهم .

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعـــد ذلك كله : إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ، وفي القرآن ، وأنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل زاهدين في النزول إلى هذا الميدان .

وهل يصح مع هذا كله ، أن يقال : إنهم كانوا في تشاغل عن القرآن غير معنيين به ، ولا آبهين له ؟

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ، ولم يسترع إنتباههم ؟ فلماذا كانت جميع هذه المباريات والمصاولات ؟ مع أن خصمهم الذي يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ، ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سوره مما جاءهم به .

أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة ، واقتناعهم بإعجاز القرآن ؟

وإلا فلماذا آثروا الملاكه على المكالمة ، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف(١) ؟

---

(١) أنظر مناهل العرفان جـ٢ ٤١٤ - ٤١٧

وأما الغرض الثالث :

ففاسد وفي ذلك يقــــول الباقلاني ، ومما يبطل ماذكروه من القول بالصرفه ، أن لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها « الصرفه » لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره(١) .

كما يقول القرطبي معلقاً على القول بالصرفه ، وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة ، أن القرآن هو المعجز . فلو قلنا : إن المنع والصرفه هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً ، وذلك خلاف الإجماع .

وإذا كان كذلك ، علم أن نفس القــــرآن هو المعجز ، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة . إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزاً(٢) .

كما أنه لو صح القول بالصرفة لكان ذلك «تعجيزا» لا «إعجازا» لأنه حينئذ يشبه مالو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام ، فهذا ليس من باب المعجز ، وإنما هو من باب التعجيز .

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء(٣)

هذا إلى جانب ماهو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن

---

(١) إعجاز القرآن دار المعارف ٣٠
(٢) تفسير القرطبي ط دار الشعب ص ٦٦
(٣) التبيان في علوم القرآن ١٤٦

قعدوا عن معارضته ، اقتناعا بإعجازه وعجزهم الفطرى عن مساجلته ، ولو أن عجزهم هذا كان لطارىء مباغت عطل قواهم البيانية ، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التى أشرنا إليها ، ففوجئوا بما ليس فى حسبانهم .

ولكان ذلك مثار عجب لهم ، ولأعلنوا ذلك فى النـــاس ليلتمسوا العذر لأنفسهم ، وليقللوا من شأن القرآن فى ذاته ، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن ، يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه .

ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله .

وكل هذه اللوازم باطلة ، فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفه .

ثم لو كان هذا العارض المفاجىء صحيحاً لأمكن البلغاء — بعد زمن التحدى — أن يأتوا بمثله ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا،واهتدى العلماء إلى تبيين أسباب الجمال فى القول . ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد،أو يقارب هذا الأفق السامى وكلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة،ازدادوا إيمانا بالضعف أمام كتاب الله(١) .

وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدق بمثل هذا الافتراء «القول بتعطيل المواهب والحواس» بعد أن يستمع إلى شهادة ألد الأعداء من صناديد قريش وهو (الوليد بن المغيرة) حين قال كلمته المشهورة « والله لقد سمعت آنفا كلاما ما ليس من كلام بشر ، ليس بشعر ولا نثر »

---

(١) من بلاغة القرآن ٤٩

ولا كهانة ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يعلى » .

والفضل ماشهدت به الأعداء(١) .

ثم ألم يكفهم ما فى القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التى دللنا عليها فيما سبق .

والتى لاتزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا،ولا تزيدها الأيام ،وما يجد فى العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحا وبيانا ؟

على أن الحق لايعرف بالرجال ، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال.

وهاقد طاش هذا الرأى فى الميزان فلنرده على قائله أيا كان :

« وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر(٢)

(١) التبيان فى علوم القرآن ص١٤٧
(٢) أنظر مناهل العرفان ٤١٤ - ٤١٩

صور من تذوق المتقدمين
لبلاغة القرآن الكريم

(٤ — دراسات بلاغية)

الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ :

فقد ألف كتبا كثيرة تناولت موضوعات شتى ، وفي كتابيه « البيان والتبيين » ، و « الحيوان » . نجد لما وضاءة في ميدان البلاغة الرحيب

ولما كان المجاز في القرآن الكريم مثار جدل بين المثبتين والنافين ، فقد تناول الجاحظ هذا الجدل ، وخاصة مضماره .

فذكر أن ابن حائط ، وناسا غيره ينكرون وجود المجاز في القرآن ، ويعتمدون على ظاهر اللفظ ، ويزعمون أن الحواريين أنبياء لقوله عز وجل « وإذا أوحيت إلى الحواريين »(١) .

كما زعموا أن في النحل أنبياء لقوله جل شأنه : « وأوحى ربك إلى النحل »(٢) .

ويسخر الجاحظ منهم . « وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء ، بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على المخرج العام ، « وأوحى ربك إلى النحل » ، ولم يخص الأمهات والملوك ، واليعاسيب(٣) . بل أطلق القول إطلاقا .

وتناول الجاحظ المجاز في قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب »(٤) .

---

(١) المائدة الآية ١١١ .

(٢) النحل الآية ٦٨ .

(٣) اليعاسيب : جمع يعسوب : ملكة النحل — ويقال هو يعسوب قومه أي رئيسهم وكبيرهم .

(٤) النحل الآية ٦٩ .

بقوله تعالى : فالعسل ليس بشراب ، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا ، فسماه — كما ترى — شرابا إذ كان يجيء منه الشراب ، واستشهد على صحة المجاز فى الآية الكريمة بموافقته لكلام العرب .

وأرجع الجاحظ فساد قول المانعين بوجود المجاز فى القرآن الكريم إلى الجهل باللغة العربية ، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يعرف عن العرب قليلا ، ولا كثيرا ، وهذا الباب هو مفخر العرب فى لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت .

وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهزيلا ، وضواحى كنانة ، وهؤلاء أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ، أو طعن عليه من هذه الحجة(١) .

كما تحدث الجاحظ عن التشبيه ، ودفع حجة من زعم عدم صحة التشبيه فى قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » .

« وقد اعترض معترضون فى قوله عز وجل : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان .

فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبو بآياتنا » (٢)

فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور فى صدر الكلام ، لأنه قال : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فما يشبه حال من

---

(١) الحيوان تحقيق عبد السلام هارون جـ ٥ ص٤٢٤ — ٤٢٦ :
(٢) الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦

أعطى شيئا فلم يقبله — ولم يذكر غير ذلك — بالكلب الذى إن حملت عليه ينبح وولى ذاهبا ، وإن تركته شـــد عليك ونبح ، مع أن قوله ، « يلهث » لم يقع موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطاش شديد ، وحر شديد، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فن شىء آخر .

ويدحض الجاحظ هـذا الزعم ، ويدفع تلك الأباطيل . ويجيب على هذه الحجة الواهية « فليس ببعيد أن يشبه الذى أوتى بالآيات والأعاجيب، والبرهانات ، والكرامات .

فى بدء حرصه عليها ، وطلبه لها ، بالكلب فى حرصه وطلبه ، فإن الكلب يعطى الجد والجهد من نفسه فى كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع نبح بعد اطرادك له(١) .

وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة فى وزن طلبها ، والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه فى شدة النباح مقبلا إليك ، ومدبرا عنك لهث ، واعتراه مايعتريه عند التعب والعطش ، وعلى أننا ما نرى بأبصارنا إلى كلابنا وهى رابضة وادعة . الا وهى تلهث من غير أن تكون هناك الا حرارة أجوافها ، والذى طبعت عليه من شأنها ، الا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين(٢) .

كما دعاه دفاعه عن البلاغة القرآنية الى بيان صحة التشبيه وروعته فى قوله تعالى : « انها شجرة تخرج من أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين »(٣) .

---

(١) طردك

(٢) الحيوان جـ٢ — ١٥ — ١٧

(٣) الصافات ٦٥ .

وأبطل اعتراضا أدعاه المبطلون « قال أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وضحت لنا صورته ، فى كتاب ناطق ، أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريغ منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لايفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صوره لهم واصف ، صدوق اللسان ، بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ، وعلى ان أكثر الناس من هذه الأمم التى لم تعايش أهل الكتابين ، وحملة القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لايتوهمون ذلك ، ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما .

ويجيب الجاحظ : « فانا وإن كنا لم نر شيطانا قط ولا صورلنا رؤوسها صادق بيده . فى اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك فى مكانين :

أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، فى اجماع المسلمين والعرب وكل ، من لقيناه على ضرب المثل بقبح ، الشيطان دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبيح والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت فى طبائعهم اغاية التقبيح(١) .

---

(١) الحيوان جـ ٦ ص ٢١١ — ٢١٣ .

ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ

ألف ابن قتيبة كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، الرد على الطاعنين في أسلوبه جهلا منهم بأساليب البيان « وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل ، وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم ، ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا ، كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأننا نقول « نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وقام الجبل ، ورخص السعر ، ونقول كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن ، وإنما كون ، ونقول : كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن ... ولو قلنا للمنكر لقوله ، جدارا يريد أن ينقض » (١) .

كيف كنت أنت قائلا في جدار ، رأيته على شفا انهيار ، رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول جدارا يهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض ، وأيا ما قال فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ (٢) .

وتحدث ابن قتيبة عن الايجاز ، وذكر أنه « ليس بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، ولو كان الايجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن ، ولم يفعل الله ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للايجاز ، وكرر تارة للافهام » (٣) .

---

(١) الكهف ٧٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٩٩ ، ١٠٠

(٣) أدب الكاتب ص ١٦ .

وفى كتابه « تأويل مشكل القرآن » تحدث تحت باب « الحذف والاختصار » عن بعض صور الايجاز فى كتاب رب العالمين « من ذلك أن تحذف المضاف، وتقيم المضاف إليه مقامه، وتجعل الفعل له كقوله تعالى : « واسأل القرية التى كنا فيها » (١) أى سل أهلها (٢) .

كما تحدث عن الحذف لوجود القرينة المعنوية » ومن الاختصار أن تضمر لغير مذكور كقوله جل وعز « حتى توارت بالحجاب » (٣) يعنى الشمس، ولم يذكرها قبل ذلك (٤) .

وكذلك تحدث عن الاطناب فى القرآن الكريم وسر بلاغتـــه « وأما تكرار الكلام من جنس واحد، وبعضه يجزىء عن بعض كتكراره فى « قل يا أيها الكافرون » (٥) .

وفى سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم التكرار . إرادة التوكيد والافهام ، كما أن من مذهبهم الاختصار إرادة التخفيف والايجاز ، لأن افتنان المتكلم ، والخطيب فى الفنون ، وخروجه من شىء إلى شىء أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد .

ويذكر ابن قتيبة شواهد للتكرار فى القرآن الكريم ، والسر البلاغى

---

(١) يوسف ٨٢ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٢ .
(٣) ص ٣٢ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٧٤ .
(٥) الكافرون ١

فيه « قال الله عز وجل « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون »(١) .
وقال : فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » (٢) ، وقال أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى »(٣) . وقال « وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين »(٤) .

كل هذا يراد به التأكيد المعنى الذى كرر به اللفظ (٥).

كما يذكر الاطناب بذكر الخاص بعد العام ، ويشيد به « وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين ، فلا شباع المعنى ، والاتســـاع فى الالفاظ كقوله سبحانه : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » (٦) . والنخل والرمان من الفاكهة ، فأفردهما عن الجملة التى أدخلهما فيها لفضلهما وحسن موقعهما ، وقوله سبحانه « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »(٧) .

وهى منها ، فأفردها بالذكر ترغيبا فيها ، وتشديد الأمرها . كما تقول: أئتنى كل يوم ويوم الجمعة خاصة (٨) .

وأشار إلى بعض الكنايات فى كتاب الله ، وأطلق عليها اسم « الاستعارة » يقول ابن قتيبة « فن الاستعارة فى كتاب الله قوله عز وجل « يوم يكشف عن ساق » (٩) . أن عن شدة من الأمر كذلك قال قتادة . وقال ابراهيم : عن أمر عظيم :

---

(١) التكاثر ٣ ، ٤ (٢) النشرح ٥ ، ٦ .
(٣) القيامة ٣٤ ، ٣٥ (٤) الانفطار ١٧ ، ١٨
(٥) تأويل مشكل القرآن ١٨٢ ١٨٣ .
(٦) الرحمن ٦٨ (٧) البقرة ٢٣٨
(٨) تأويل مشكل القرآن ١٨٦ ، ١٨٧ .
(٩) القلم ٤٢ .

وأصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى معاناة والجد فيه شمر عن ساقه فاستعيرت الساق فى موضع الشدة . وقال دريد بن الصمة :

كميش الازار خارج نصف ساقه
بعيد من الآفات طلاع أنجد (١)

وقال الهذلى :

وكنت إذا جارى دعا لمضوفه
أشمر حتى ينصف الساق مئزرى (٢)

---

(١) كميش الازار : مشمر — طلاع أنجد : ركاب لصعاب الأمور ، غالب لها .

(٢) المضوفة : الأمر يشفق منه ويخاف : ونصف الأزار ساقة ينصفها اذا بلغ نصفها .

الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ

تحدث عن البلاغة القرآنية . وكان حديثه عنها أهم ماذكره فى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » .

فقد قسم البلاغة فى رسالته إلى ثلاث طبقات ، وجعل الطبقة العليا خاصة بالاعجاز القرآنى ، وما دونها لبلاغة البلغاء من الناس . وهى طبقة تتفاوت فيها المراتب .

والبلاغة عنده « ايصال المعنى إلى القلب . فى أحسن صورة من اللفظ »

ومن ثم فقد حصر البلاغـــة فى عشرة أقسام هى : الايجاز والتشبيه والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس . والتصريف ، والتضمين والمبالغة ، وحسن البيان .

وفى دراسته للإيجاز ذكر ايجاز الحذف ، وايجاز القصر . وعرف ايجاز الحذف بأنه « اسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال ، أو فحوى الكلام

واستشهد لايجاز الحذف ببعض آى الذكر الحكيم من ذلك : قوله تعالى « واسأل القرية »(١) وقوله : جل شأنه « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا . حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها »(٢)

وذكر السر البلاغى للحذف « كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم . الذى

---

(١) يوسف ٨٢
(٢) الزمر ٧٣

لا يشوبه التنقيص والتكدير وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب . ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان(١)

وعنى بإيجاز القصر « بنية الكلام على تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى من غير حذف » وجاء له بشواهد كثيرة ، منها قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » .

ووازن بين الآية الكريمة ، وما أثر عن العرب من قولهم : القتل أنفى للقتل » .

ودال على افضلية الآية من وجوه كثيرة ، تدل على ذوقه السليم ، وحسه المرهف .

وقد استحسن الناس من الايجاز قولهم « القتل أنفى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والايجاز ، وذلك يظهر في أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة

ثم فصل هذه الأوجه : أما الكثرة في الفائدة فيه ، ففيه كل ما في قولهم « القتل أنفى للقتل » وزيادة معان حسنه . منها إبانه العدل لذكره القصاص ومنها إبانة الغرض فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به .

وأما الايجاز في العبارة ، فإن الذى هو نظير — القتل أنفى للقتل —

---

(١) انظر النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ط دار المعارف ٧٥ ، ٧٦

قوله « القصاص حياة » . والأول أربعة عشر حرفا ، والثانى عشرة أحرف.

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة، فإن فى قولهم « القتل أنفى للقتل » تكريرا غيره أبلغ منه . ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر فى باب البلاغة عن أعلى طبقة.

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس ، وموجود فى اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ، لبعد الهمزة من اللام . وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام

فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها ، صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغا حسنا(١)

وفرق الرمانى بين الايجاز والتقصير ، فالايجاز بلاغة ، والتقصير عى. كما تحدث عن الاطناب ، وأشاد به ، وأشار الى التطويل وعابه ، وذكر أن لكل من الايجاز والاطناب موضعا يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد والاهتمام به أعظم .

ويرى الرمانى أن الاطناب يكون فى تفصيل المعنى ، وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، ولما كان الاطناب تفصيلا للمعنى ، وتطبيقا لوجوه القول ، وتقبعا لجزئياته ، كان المطنب كالسالك طريقا بعيدا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة

أما التطويل فإنه عى كما يقول الرمانى لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى

---

(١) المرجع السابق ٧٧ ، ٧٨

منه القايل . فكان كالسالك طريقا بعيدا جهلا بالطريق القريب . فهو نوع من الجهل والحيرة والضلال

وفى دراسته للتشبيه عرض لكثير من آيات الله البينات ، مبينا مافى التشبيه من أسرار بلاغية ، وقيم جمالية

ويقول فى قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب(١)

فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه . وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة ، وعظم الفاقه

ولو قيل يحسبه الرائى ماء ، ثم يظهر أنه على خلاف ماقدر لكان بليغا ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد حرصا عليه ، وتعلق قلبه به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار — نعوذ بالله من هذه الحال —

وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه ، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم ، وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة(٢)

ويقول فى قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء . كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت . لو كانوا يعلمون »(٣)

---

(١) النور ٣٩ (٢) المرجع السابق ٨٢

(٣) العنكبوت ٤١

فهذا تشبيه قد أخرج مالايعلم بالبديهة ، إلى مايعلم بالبديهة . وقد اجتمعا فى ضعف المعتمد ، ووهاء المستند . وفى ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين . مع الشعور بما فيه من التوهين(١)

وفى قوله تعالى : « كأنهم أعجاز نخل خاوية »(٢) يقول : « وهذا تشبيه قد أخرج مالايعلم بالبديهة إلى مايعلم ، وقد اجتمعا فى خلو الأجساد من الأرواح . وفى ذلك الاحتقار لكل شىء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل(٣)

وفى دراسته للاستعارة ، أتى بشواهد كثيرة للاستعارة فى كتاب الله ، وحللها مبينا مافيها من روعة وجمال .

يقول فى قوله تعالى : « اشتعل الرأس شيبا »(٤) أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا الموضع أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت فى الانتشار ، والاسراع كاشتعال النار وله موقع فى البلاغة عجيب ، وذلك أنه انتشر فى الرأس ،انتشارا لايتلافى كاشتعال النار (٥)

وفى قوله جل شأنه « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله، وحبل من الناس »(٦) يقول : حقيقته : حصلت عليهم الذلة ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الدلالة على تثبيت ماحصل عليهم من الذلة ، كما يثبت الشىء بالضرب لأن التمكين به محسوس والضرب مع ذلك ينبىء عن الاذلال والنقص . وفى ذلك شدة الزجر لهم ، والتنفير من حالهم(٧) .

---

(١) المرجع السابق ٨٤
(٢) الحاقة ٧
(٣) المرجع السابق ٨٤
(٤) مريم ٤
(٥) المرجع السابق ٨٨
(٦) آل عمران ١١٢
(٧) المرجع السابق ٩٠ .

وقصد الرمانى « بالتلاؤم » فى الطبقة العليا هو القرآن الكريم والمتلائم عدم التنافر فى حروف الكلمة أو بين الكلمات . وقسم الكلام إلى ثلاث طبقات : كلام متنافر ، وكلام متلائم فى الطبقة الوسطى ، وكلام متلائم فى الطبقة العليا وذكر أن المتلائم فى الطبقة الوسطى هو الكلام البليغ . والفرق بين القرآن والكلام البليغ كالفرق بين الكلام البليغ والمتنافر .

ومثل للكلام المتنافر بالبيت المشهور :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

كما بين أن مرجع التنافر هو القرب الشديد ، أو البعد الشديد لمخارج الحروف(١)

وأراد الرمانى « بالفواصل » حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن افهام المعانى ، والفواصل عنده بلاغه ، أما الاسجاع فعيب ، لأن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الاسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب لما توجبه الحكمة فى الدلالة(٢)

ويلاحظ أنه قصر السجع على النوع الثقيل المستكره ، ومن ثم فلم يسم ماجاء على أسلوبه فى القرآن سجعا ، وإنما سماه فاصلة .

وكلامه فيه نظر ، لأن السجع الحسن هو ماتطلبه المعنى واستدعاه المقام

ونوه الرمانى بالفواصل القرآنية « وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى افهام المعانى ، التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها(٣)

ويرى الرمانى أن الفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة والآخرى على الحروف المتقاربة .

---

(١) المرجع السابق ٩٤ - ٩٦ (٢) المرجع السابق ٩٧
(٣) المرجع السابق ٩٨

فالحروف المتجانسة كقوله تعالى « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى »(١)

وكقوله : « والطور وكتاب مسطور . » الآيات .

وأما الحروف المتقاربة فكالميم من النون : كقوله تعالى : الرحمن الرحيم مالك يوم الدين (٢) وكالدال مع الباء كقوله تعالى ق . والقرآن المجيد ثم قال هذا شيء عجيب

وإنما حسن في الفواصل : الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان . مايدل على المراد . في تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة(٣)

هذا وبأسلوب الرماني الأخاذ ، وعباراته المشرقة يكمل رسالته في الاعجاز القرآني .

---

(١) طه ١ ، ٢
(٢) الفاتحة ٣ ، ٤
(٣) الفاتحة ٩٨

الخطابى : المتوفى سنة ٣٨٨ ﻫ

تناول فى رسالته « البيان فى اعجاز القرآن » قضية الاعجاز ، وذكر أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعانى ، من توحيد له عزت قدرته وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته . من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها واضعا كل شيء منها موضعه الذى لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله(١) بمن عصى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن(٢) والمدلول عليه ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه ، وأنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، ومعلوم أن الاتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها ، حيث تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر .

ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله(٣) .

كما نصب نفسه للرد على الطاعنين بوجود كلمات فى كتاب الله لم تقع موقعها الأخص الأشكل والتى ذكروا منها قوله تعالى : « فأكله الذئب »(٤) وادعوا أنه يستعمل مع الذئب الافتراس ونحوه ، ودحض حججهم ، وأبطل

---

(١) مثلات : جمع مثله بمعنى العقوبة والتنكيل .

(٢) الكوائن : جمع كائنة وهى الحادثة .

(٣) البيان فى اعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ط دار المعارف ص ٢٧ ، ٢٨

(٤) يوسف الآية ١٧

دعواهم . بقوله : « فأما قوله تعالى « فأكله الذئب » فإن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما . وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم اياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل »(١) .

كما أشار إلى السر البلاغى للتكرار فى كتاب رب العالمين « وأما ما عابوه من التكرار فإن تكرار الكلام على ضربين أحدهما مذموم ، وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى ، لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه يكون حينئذ فضلا من القول ولغوا ، وليس فى القرآن شىء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار .

وإنما يحتاج إليه ، ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها ، والاستهانة بقدرها ، وقد يقول الرجل لصاحبه فى الحث والتحريض على العمل : عجل عجل ، وارم ارم ، كما يكتب فى الأمور المهمة على ظهر الكتب مهم مهم مهم . ونحوها من الأمور ، وكقول الشاعر :

هلا سألت جموع كنـــ ـــدة يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر :

يال بكر أنشروا لى كليبا يالبكر أين أين الفرار

(١) المرجع السابق ٤١

وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذى من أجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن فقال سبحانه « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون »(١) وقوله تعالى « وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا »(٢).

وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الأنس والجن وعدد عليهم أنواع نعمه التى خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلا من فصول النعم جدد اقرارهم به واقتضاهم الشكر عليه . وهى أنواع مختلفة وفنون شتى ، وكذلك هو فى سورة المرسلات ذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها ، فقدم الوعيد فيها ، وجدد القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتكون أبلغ فى القرآن ، وأوكد لاقامة الحجة والأعذار ، ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة .

فإن قيل إذا كان المعنى فى تكرير قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » تجديد ذكر النعم فى هذه السورة ، واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »(٣) . ثم أتبعه بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وأى موضع نعمة ههنا . ؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير والدخان المستطير .

ويجيب الخطابى « قيل إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به ، وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشر من ثوابه على طاعته ، ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها ، وانما تحقق معرفة الشىء بأن يعتبر بضده ليوقف على حده .

والوعد والوعيد وان تقابلا فى ذواتهما ، فإنهما متوازيان فى موضع

---

(١) القصص ٥١
(٢) طه ١١٣
(٣) الرحمن ٣٥

النعم بالتوقيف على مآل أمرهما ، والإبانة عن عواقب مصيرهما » وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء .

والحادثات وان أصابك بؤسها　　　فهو الذى أنباك كيف نعيمها

وذكر السر البلاغى للايجـــاز فى بعض آى الذكر الحكيم . « وأما ما عابوه من الحذف والاختصار فى قوله سبحانه : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى »(١) . فإن الإيجاز فى موضعه ، وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وانما جاز حذف الجواب فى ذلك وحسن لان المذكور منه يدل على المحذوف ، والمسكوت عنه من جوابه ، لان المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به والمعنى : لو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن .

وقد قيل ان الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فى الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذى تناوله الذكر لحذف الجواب كقوله لو رأيت عليا بين الصفين ! . وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا .

وكذلك قوله سبحانه : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها . . . » الآية(٢) والمعنى كأنه قيل لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذى لا انقطاع له ، ولا تكدير فيه(٣) .

---

(١) الرعد ٣١　　　(٢) الزمر ٧٣
(٣) المرجع السابق ٥١

وإلى جانب ماذكره الخطابي من بيان الإعجاز القرآنى ، والرد على الطاعنين فى أسلوبه ، ودحض أباطيلهم ، وبيان السر البلاغى للإيجاز بالحذف ، والإطناب بالتكرار فى كتاب رب العالمين .

فقد أشار — أيضاً — إلى بعض الاستعارات فى كتاب الله ، وعالجها بما أوتى من فكر نير ، واحساس مرهف ، فذكر السر البلاغى لهـــذه الاستعارات ، ووضح مافيها من حسن وجمال .

« وأما قوله سبحانه « هلك عن سلطانيه »(١) . وزعمهم أن الهلاك لايستعمل إلا فى تلف الأعيان ، فإنهم مازادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه . وقد تكون الاستعارة فى بعض المواضع أبلغ من الحقيقة كقوله عزوجل « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار »(٢) . والسلخ ههنا مستعار ، وهو أبلغ منه لو قال : نخرج منه النهار . وإن كان هو الحقيقة . وكذلك قوله سبحانه « فاصدع بما تؤمر »(٣) . هو أبلغ من قوله « فاعمل بما تؤمر » وإن كان هو الحقيقة ، والصدع مستعار ، وإنما يكون ذلك فى الزجاج ونحوه من فلز الأرض(٤) . ومعناه المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر فى النفوس والقلوب تأثير الصدع فى الزجاج ونحوه . وكذلك قوله سبحانه « هلك عنى سلطانيه » وذلك أن الذهاب قد يكون على مراصدة العود ، وليس مع الهلاك بقيا(٥) ولارجعى . وقـــد قيل إن معنى السلطان ههنا الحجة والبرهان(٦) .

---

(١) الحاقة ٢٩

(٢) يس ٣٧

(٣) الحجر ٩٤

(٤) الفلز : عنصر كيماوى يتميز بالبريق المعدنى ، والقابلية لتوصيل الحرارة والكهرباء .

(٥) بقيا : بضم الباء وسكون القاف : الابقاء

(٦) المرجع السابق ٤٤

وقد ختم رسالته ببيان وجه من وجوه الإعجاز رأى أنه قد خفى على كثير من الناس ، وقصد به تأثير القرآن فى النفوس ، وصنيعه فى القلوب » .

« قلت فى إعجاز القرآن وجها آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ، ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ومن الروعة والمهابة فى أخرى ، ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، قد عراها الوجيب والقلق .

وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها ، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه ، وصارت عدواتهم موالاة ، وكفرهم إيمانا .

خرج عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله فسار إلى دار أخته ، وهى تقرأ سورة طه ، فلما وقع فى سمعه لم يلبث أن امن وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوافقوه على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة ، فلما أقبل عتبة ، وأبصره الملأ من قريش قالوا : أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القران فى الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار امنوا به ، وعادوا إلى المدينة ، فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به»(١) .

ومصداق ماوصفناه فى أمر القرآن فى قوله تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »(٢) .

وفى قوله : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها . مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله»(٣) .

وقال سبحانه : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا(٤) ، وقال سبحانه : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »(٥) وقال جل شأنه : « واذا سمعوا ماأنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق »(٦) .

---

(١) الجن ١ ، ٢
(٢) الحشر ٢١
(٣) الزمر ٢٣
(٤) الأنفال ٢
(٥) العنكبوت ٥١
(٦) المائدة الآية ٨٣

الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

يتجمل « الشريف الرضى » بفكر العالم ، وتذوق الأديب ، ومن ثم فقد ملكت البلاغة القرآنية والنبوية فؤاده ، وتبوأت مكانا عليا من نفسه . فألف فيها الكتب الكثيرة التي تعكس الصورة المشرقة لسعة أفقه ، وغزارة علمه ، ووفرة ثقافته .

فكتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» كشف لطيف دقيق لوجوه البيان في القرآن الكريم .

وإذا كان كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة لا يدخل في باب المجاز بمعناه البياني ومدلوله البلاغي المقابل للحقيقة عند علماء البيان . كما أن إشارات الجاحظ وتلميذه بن قتيبة إلى المجازات والاستعارات القرآنية بالمعنى الاصطلاحي عند البيانيين لم تكن إلا لمعا منثورة في البيان والتبيين، والحيوان، وتأويل مشكل القرآن ، ولم تأخذ ذلك المنهج القائم الكامل ، الذي سلكه « الشريف الرضى » في تلخيص البيان . علم أن كتاب الشريف أول كتاب ألف لغرض واحد، ومتابعة لمجازات الاستعارات في كلام الله، سورة سورة، وآية آية . ومن ثم كانت القيمة العلمية لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا الغرض ، فهو يقوم في التراث العربي الإسلامي وحده شاهدا على أن الشريف الرضى خطا أول خطوة في التأليف في مجازات القرآن، واستعاراته تأليفاً مستقلا . ولم يأت عرضا في خلال كتاب ، أو بابا من أبواب مصنف(١) .

هذا إلى جانب كتابه الكبير « حقائق التأويل في متشابه التنزيل » . وقد ألفه الشريف لدفع الشبه حول كتاب الله ، ودحض الأباطيل التي

---

(١) مقدمة تلخيص البيان للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ٢٩

لا كتها ألسنة الملحدين والمفرضين ، وتقرير الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، وفيه تأويلات دقيقة لكثير من الآيات القرآنية ، وبحوث بلاغية قيمة ، دفعت أستاذه ابن جني إلى الإشادة به ، وإطرائه بقوله : « وصنف كتابا في معاني القرآن الكريم يتعذر وجود مثله ، دل على توسعه في علم النحو واللغة(١) .

وكتاب « المجازات النبوية » الذي سنقطف منه ثمارا شهية عند الكلام عن البلاغة النبوية إن شاء الله .

النظر في المفردات :

تحدث الشريف عن الكلمات الموحية في كتاب الله ، وسر بلاغتها وجمالها يقول في قوله تعالى «وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي»(٢).

إن في هذا الكلام فائدة لطيفة . وهو أن قوله سبحانه : « ياأرض ابلعي ماءك » أبلغ من قوله « يا أرض اذهبي بمائك » لأن في الابتلاع دليلا على إذهاب الماء بسرعة ألا ترى أن قولك لغيرك « ابلع هذا الطعام » أبلغ من قولك « كل هذا الطعام » إذا أردت إيصاله إلى جوفه بسرعة .

وكذلك الكلام في قوله سبحانه « وياسماء اقلعي » لأن لفظ الإقلاع ههنا أبلغ من لفظ الانجلاء ، لأن في الإقلاع أيضاً معنى الإسراع ، بإزالة السحاب كما قلنا في الابتلاع ، وذلك أدل على نفاذ القدرة ، وطواعية الأمور من غير وقفة ولا لبثة(٣) .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤٥

(٢) هود ٤٤

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٦٢ .

كما يشيد بحسن الكلمة وعذوبتها، وتلاؤم حروفها، وقوله سبحانه: «ألا أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه، ألا حين يستغشون ثيابهم، ويعلم ما يسرون، وما يعلنون»(١).

والمراد بذلك — والله أعلم — أنهم يثنون صدورهم على عداوة الله ورسوله ﷺ، وذلك كما يقول القائل: هذا الأمر فى طى ضميرى، أى قد اشتمل عليه قلبى. فيكون قوله تعالى: «يثنون صدورهم» بمنزلة قوله: «يطوون صدورهم». ولفظ يثنون أعذب استماعا وأحسن مجازا(٢).

الالتفات:

ذكر الشريف أما لهذا الأسلوب من منزلة رفيعة فى مضمار البلاغة القرآنية. كما عنى ببيان السر البلاغى فيه.

فقد اعترض على من قال فى قوله تعالى حكاية عن أم مريم «رب إنى وضعتها أنثى. والله أعلم بما وضعت(٣). لو كان من صلة قوله أم مريم لكانت تقول: «وأنت أعلم بما وضعت» لأنها تخاطب الله سبحانه، ويبين الشريف سلامة هذا الأسلوب، وجريانه على سنن الفصاحة، ولباب البلاغة.

«قلت أنا: وهذا القول غير سديد، لأنه لا يمتنع أن يكون ذلك من قول أم مريم، وتقول مع ذلك: «والله أعلم بما وضعت» على مجرى العادة فى خطاب المعظم من العدول معه من كاف المواجهة إلى هاء الكناية، وفى

---

(١) هود ٥ (٢) المرجع السابق ١٥٨
(٤) آل عمران ٣٦

القرآن مثل ذلك كثير فى خطاب الله تعالى ، وخطاب غيره ، من خروج عن كناية إلى مواجهة ، ومن مواجهة إلى كناية ، ألا ترى إلى قوله سبحانه « الحمد لله رب العالمين » ثم قال : إياك نعبد وإياك نستعين(١) وإلى قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » إلى غير ذلك مما فى معناه »(٢) .

ودال على جمال هذا الأسلوب بأنه مما يرد فى كلام العرب ، وأشعارها فتعرف به قدرتها على التصرف فى أقطار الكلام ، والتفسح فى أعطان الخطاب ، فتارة يكون مواجهه ، لأنه أبلغ من المخاطبة ، وتارة يكنى عن الغائبين لأن ذلك أشد تصرفا ، وأغرب طريقا ومذهبا .

وعلى ذلك قول أبى كبير الهذلى :

يالهف نفسى كان جدة خالد
وبياض وجهك للتراب الأعفر

فانتقل من الغيبة الى المواجهة شجاعة فى البلاغة ، وأبعاداً فى مسالك الفصاحة(٣) .

إقامة الظاهر مقام المضمر :

تحدث « الشريف الرضى » عن اقامة الظاهر مقام المضمر فى كتاب الله ، ومافى هذا الأسلوب من أسرار بلاغية .

يقول فى قول تعالى : « والى الله ترجع الأمور(٤) » .

---

(١) الفاتحة ٢ — ٤
(٢) يونس ٢٢ — انظر حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ٨٨
(٣) المرجع السابق ٣٥٧ (٤) آل عمران ١٠٩

فإن قال قائل : « مامعنى تكرير اسم الله تعالى فى هذه الآية ، وكان ذكره فى الموضع الأول يغنى عن اعادته فيما بعد ، وكان وجه الكلام أن يقول تعالى : « ولله مافى السموات والأرض ، واليه ترجع الأمور » .

قيل له انما أعيد اسم الله تعالى ههنا للتفخيم والتأكيد ، ومن عادة العرب اذا أجروا ذكر الأمر يعتمدون تفخيمه ، ويقصدون تعظيمه، بأن يعيدوا لفظه مظهراً غير مضمر ، اذا كان الاضمار يطأطىء من الاسم ، ويضع ، يقدر مايرفع منه الإظهار ويفخمه ، وعلى ذلك قول الشاعر :

لاأرى الموت يسبق الموت شيء

نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فلو قال يسبقه شيء لكان مستقيما ، ولكنه أعاد الاسم تفخيما ، ولم يرض أن ثنى ذكره حتى ثلثه مبالغة فى الغرض الذى رماه ، والمعنى الذى نحاه ، ومثل ذلك قول أبى النشناش النهشلى :

فعش معدما أو مت كريما فاننى

أرى الموت لاينجو من الموت هاربه

واستشهد الشريف برأى شيخه ابن جنى على بلاغة هذا الأسلوب وروعته .

يقول ابن جنى فى قوله تعالى : « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون(١) .

إنما كرر تعالى ذكر الذين ظلموا ، ولم يقل ، وأنزلنا عليهم ، لأن ذلك أشد مبالغة فى ذمهم ؛ وأدخل فى باب التفحيش لذكرهم ، ولأن اظهار اسم المستحق للعقاب ، مع الإخبار بوقوعه به أبلغ من اضماره، وأجدر بخوف الخائف من مشاركته فى وجه استحقاقه » .

---

(١) البقرة الآية ٥٩

وفى الجملة فالمظهر أفخم من المضمر ، وينبغى ألا يوضع اسم الله إلا فى مواضع التفخيم ، ومظان التعظيم ، فلذلك حسن تكريره فى هذه الآية ، لأن قوله تعالى: « وإلى الله ترجع الأمور » دال على عظم ملكه ، وقوة سلطانه وذلك موضع تفخيم فحسن فيه التكرير(١) :

الايجاز :

ذكر الشريف الايجاز ، وأشاد ببلاغته ، كما ذكر التطويل وعابه ، ونفى وجوده فى القرآن الكريم ، وقد يسقط من القرآن كلم وحروف ، ويدل فحوى الخطاب عليها اختصارا وحذفا ، وابعادا فى مذاهب البلاغة ، واغراقا فى منازع الفصاحة ، ولأن فيما يبقى أدلة على مايلقى ، إذ كانت البلاغة عند أهل اللسان لمحة دالة ، وأشارة مقنعة .

ولايجوز أن تزاد فيه الكلم والحروف التى ليس فيها زيادة معان ، أو أدلة على معان ، لأن ذلك من قبيل العى والفهاهة ، كما أن الأول من دلائل الاقتدار والفصاحة (٢) .

يقول فى قوله تعالى — حكاية عن قوم شعيب عليه السلام — « أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا »(٣) .

وليس يصح على ظاهر الكلام أن يؤمر شعيب بأن يترك قومه شيئاهم عليه ، وإنما المعنى — والله أعلم — « أصلاتك تامرك أن تأمرنا بترك مايعبد

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ١٧٠ .

(٣) هود ٨٧ .

آباؤنا ، فاكتفى بذكر الأمر الأول عن ذكر الأمر الثانى ، لأنه كالمعلوم من نحوى الكلام وهذا من غوامض أسرار القرآن(١) .

كما تحدث عن الايجاز بحذف جواب الشرط ، ونوه ببلاغته : « وقوله سبحانه حاكيا عن لوط عليه السلام قال : « قال لو أن لى بكم قوة ، أوآوى إلى ركن شديد » وجاء جواب « لو » ههنا محذوفا ، والمعنى « لو أننى على هذه الصفة لحلت بينكم وبين ماهممتم من الفساد . وأرد تموه من ذنوب فحشاء » ، والحذف ههنا أبلغ لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء ، وبغليظ النكال ، ويصرف وهمه إلى ضروب العقاب ، ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات (٢).

وذكر الشريف الايجاز بحذف الصفة : يقول فى قوله تعالى لنوح عليه السلام « أنه ليس من أهلك »(٣) . أى ليس من أهلك المقتدين بك ، والسالكين لمذاهبك(٤) .

كما ذكر الايجاز بحذف الموصوف . يقول فى قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة(٥) » ، « وقيل أيضا ليس لها قضية كاذبة لاخبار الله سبحانه بها ، وقيام الدلائل عليها ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، وذلك فى كلامهم أظهر من أن يتعاطى بيانه ، وقيل أيضا : ليس لها نفس كاذبة فى الخبر عنها والاعلام بوقوعها ، والمعنيان واحد(٦) .

---

(١) تلخيص البيان ١٦٦
(٢) المرجع السابق ١٦٣
(٣) هود ٤٦
(٤) حقائق التأويل ١٠٨
(٥) الواقعة ٢
(٦) تلخيص البيان ٣٢٥

الاطناب :

تحدث الشريف عن الاطناب ، ورغب فيه إذا كان المقام يقتضيه . والغرض يستدعيه ، وعاب التطويل ، ونفر منه ، ونفى وجوده فى القرآن الكريم .

ولا يجوز أن تزاد فى القرآن الكريم الكلم والحروف التى ليس فيها زيادة معان ، أو أدلة على معان ، لأن ذلك من قبيل العى والفهاهة(١) .

وإن كلامه تعالى أفصح الكلام ، وأشده انخراطا فى سلوك الفصاحة . وإبعادا فى مرامى البلاغة ، وليس من البلاغة أن يقوله القائل إذا أردنا أن يعلمنا أنه أعطى زيدا تسعة دراهم : أعطيت زيدا درهمين وثلاثة وأربعة ، فيفرق العدد فى مثل هذه الحال لأن قوله : أعطيته تسعة دراهم أخصر وأقصر ، وهو بمذاهب البلغاء أشبه وأليق ، وليس موضع هذا القول من مواضع الاسهاب والاطناب ، فيكون بسط الكلام فيه أبلغ وأشفى وأنقع .

ويذكر الشريف السر البلاغى للإطناب فى قوله تعالى : من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ »(٢) . بقوله وقوله تعالى : « فليمدد بسبب إلى السماء » والسبب هنا الحبل والسماء ههنا سقف البيت الذى يحله . فكأنه تعالى قال : « فليربط حبلا بسقف بيته وليختنق به ، إلى أن ينقطع الحبل، من فرط تراجعه فيه ، وجذبه إياه ، فلينظر هل ما يفعله بنفسه من ذلك ما غاظه من قوة أمر الرسول ، وورى زناده ، وارتفاع عماده .

ألا ترى إلى هذا الاسهاب فى هذا المكان ، كيف وقع موقعه، وأصاب

---

(١) تلخيص البيان ٣٢٥ (٢) الحج ١٥

غرضه . وقد كان تعالى قادرا على أن يقول : من كان يظن أن لن ينصره الله ورسوله ، فليخنق نفسه غيظا ولكن لما كان فى بسط هذا الكلام ، والاتساع ، من مذاهبه من زيادة النعمة على المراد به وفرط الغيظ المقصود بإسماعه حسن البسط والتوسع فيه .

ألا ترى إلى مقدار الفرق بين قول القائل لضد ينازعه ، وعدو يقارعه :

إن كنت مغيظا من نعمة الله على ، وحسن بلائه عندى ، فاقتل نفسك ، وبين قوله : فاجزز أناملك ، وافقأ عينك ، واجدع أنفك ، واذبح نفسك ، ويزيد فى ذلك تفحيش صفة الذبح عليه بقوله : « خذ مدية حادة وأسل دماءك » ، وبين الموضعين فرق واضح وتمييز ظاهر ، فافهم ذلك ، فإنه من أسرار القرآن الخفية ، وبدائعه العجيبة التى تزاد على النزح جماحا ، وعلى القدح اضطراما(١) .

وواضح أن الشريف بهذا القول الممتع ، وتلك الحجج القوية يدخل الاطناب فى الإعجاز البلاغى القرآن الكريم .

ويذكر الشريف «السر البلاغى» الاطناب فيما يسوقه من شواهد على بلاغة القرآن وإعجازه .

يقول فى قوله تعالى : « ما يأكلون فى بطونهم إلا النار »(٢) .

وقوله سبحانه « فى بطونهم » زيادة معنى ، وإن كان كل آكل إنما يأكل فى بطنه ، وذلك أنه أفظع سماعا ، وأشد إيجاعا ، وليس قول الرجل

---

(١) أنظر المرجع السابق ٣٠٩ — ٣١١ .
(٢) البقرة الآية ١٧٨ .

للآخر : « إنك تأكل النار » مثل قوله : « إنك تدخل النار فى بطنك »(١) .

إن الشريف فى وقفته البارعة لدى قول الله « فى بطونهم » يرد على قوم يحسبون الإيجاز اختصارا فى الألفاظ وحدها ، فهم يعدون ذكر كل ما يستطاع فهمه من العبارة لغوا لا فائدة فيه ، وعلى أساس هذه النظرية المخطئة ، وجهت نقدات ظالمة لبعض المجيدين من البلغاء .

ولكن الشريف بحسه الأدبى يعلم أن القرآن كتاب اقناع عقلى ، واقناع نفسى معا ، فهو من الناحية الفكرية مقنع ملزم كل من له قلب ، أو ألقى السمع .

وهو من الناحية النفسية ممتع ذوى الحس الأدبى ، ممن يرون للألفاظ ظلالا توحى ، وإيماضا يشع ، فكلمة « بطونهم » المملوءة بالنار ترسم لا محالة هولا يأخذ بالقلوب ، وإذا كان الأكل لابد أن يتجه إلى البطن ، فإن تصوير ذلك باللفظ مما يعيد المنظر الهائل مفجعا مفزعا حين يتصوره الخيال فى أفجع مثال(٢) .

ويدفع الشريف شبهة عن التكرير فى بعض آى الذكر الحكيم ، ويذكر السر البلاغى فى هذا التكرار .

فإن قال قائل إنه تعالى : كرر قوله : « ويحذركم الله نفسه » فى موضعين متقاربين من هذه السورة . فما الفائدة من ذلك ؟

فالجواب : إن ذلك ليس بتكرار ، لأن الذى عناه بالآية الأولى ،

---

(١) أنظر المرجع السابق ٣٠٩ - ٣١١ .
(٢) رابطة العالم الإسلامى د / محمد رجب البيومى .

غير الذى عناه بالآية الأخرى ، لأن الأولى إنما حذرهم فيها عقابه على موالاة الكفار والثانية ، إنما حذرهم فيها ذلك على موافقة سائر المعاصى ، فحسن إعادة التحذير عند كل منهى عنه ، ليكون الخوف أعم ، والزجر أبلغ ، وليعلم أيضا أن المجرمين فى العقاب على حد سواء ، فيكون التناهى عند أحدهما كالتناهى عن الآخر .

وقد يجوز أيضا أن تكون الآية الثانية نزلت بعد الأولى بزمان متراخ فحسن التكرير فيها ، لانفراج ما بين الأولى وبينها(١) .

ولما كانت الحروف الزائدة فى الكلام دون فائدة عيب فيه ، وثلم لبلاغته فقد نزه الشريف القرآن الكريم عن هذه الزيادة ، مقررا إعجازه لبلاغته .

يقول الشريف : « وهذه منزلة يترفع عنها كلام الله سبحانه الذى هو المتعذر المعوز ، والممتنع المعجز ، وكل كلام إنما هو مصل خلف سبقة ، وقاصر عن بلوغ أدنى غاياته ؛ بل قد يرتفع عن هذه المنزلة كلام الفصحاء المتقدمين ، والبلغاء المحذقين فضلا عما هو أعلى طبقات الكلام ، وأبعد مقدورات الأنام .

وإنى لأقول أبدا : إنه لو كان كلام يلحق بغباره ، أو يجرى فى مضماره ، بعد كلام الرسول ﷺ ، لكان ذلك كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، إذ كان منفردا بطريق الفصاحة ، لا تزاحمه عليها المناكب ، ولا يلحق بعقوه(٢) فيها الكادح الجاهد .. وكلامه رضى الله عنه مع ما ذكرناه من علو طبقته وجلو طريقته ، » وانفراد طريقه ، فإنه إذا حول ليلحق

(١) حقائق التأويل ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) بعقوه : بسموه وارتفاعه .

غاية من أدانى غايات القرآن وجدناه ناكصا متقاعسا ، ومتقهقرا راجعا ، وواقفا بليدا ، وو إنما بعيدا . على أنه الكلام الذى وصفناه بسبق المجارين ، والعلو على المسامين ، فما ظنك بما دون ذلك من كلام الفصحاء ، واللاغات البلغاء الذى يكون بالقياس إليه هباء منثورا ، وسرابا غرورا .

وهذا الذى ذكرناه أيضا من معجزات القرآن إذا تأمله المتأمل ، وفكر فيه المفكر ، إذ كان الكلام المتناهى الفصاحة ، العالى الذروة ، البعيد المرمى والغاية ، إذا قيس إليه ، وقرن به شال فى ميزانه ، وقصر عن رهانه ، وصار بالإضافة إليه قالصا بعد السبوغ ، وقاصرا بعد البلوغ ، ليصدق فيه قول أصدق القائلين سبحانه اذ يقول « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد(١) .

ويدحض الشريف حجج من زعم زيادة الواو فى بعض آيات الله البينات فيذكر رأيا للمبرد ويستحسنه « وقد كان بعض من رام كسر المذهب الذى قدم ذكرنا له عن المبرد ، واختيارنا طريقته فيه سأله عن قول الله سبحانه « هذا بلاغ للناس ولينذروا به »(٢) .

فقال قد علمنا أن هذه اللام لام كى ، فما معنى إدخال الواو عليها ، إن لم تقدرها مزيدة ؟ .

فقال : أبو العباس لسائله : « ألست تعلم أن قوله تعالى : « هذا بلاغ » مصدر ولينذروا به فعل موضوع فى موضع المصدر ، لأن الأفعال تدل على مصادرها ؟

---

(١) فصلت ٤١ ، ٤٢ — أنظر حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ١٦٦ — ١٦٨ .

(٢) إبراهيم ٥٢ .

فالتقدير أن يكون هذا بلاغ للناس وإنذار ، فبطل أن تكون الواو جاءت لغير معنى .

وقد أحسن أبو العباس فى هذا الجواب غاية الإحسان(١) .

ويواصل الشريف تفنيد الآراء الباطلة ببيانه الشافى ، ويشبع القول حتى لايكون ثم حاجة لمستزيد .

فيدفع رأيا عن زيادة الواو فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها(٢) بقوله : «فليس الأمر على ما ظنه ، لأن تقدير ذلك عند المحققين من العلماء « حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، دخلوها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم » لأن فى تفتيح الأبواب لهم دليلا على دخولهم . فترك ذكر الدخول لما فى القرآن من الدلالة عليه(٣) .

الاستعارة :

تحدث الشريف الرضى عن « الاستعارة » فى كتاب الله بأسلوبه الشيق الذى يتجمل بذوق الأديب ، ورقة الشاعر ، وحس البليغ .

يقول فى قوله تعالى : فآمنوا بالله ورسوله ، والنور الذى أنزلنا(٤) .

وهذه استعارة ، والمراد بالنور ههنا القرآن ، وإنما سمى نورا ، لأنه يهتدى فى ظلم الكفر والضلال ، كما يهتدى بالنور الساطع والشهاب اللامع ، وضياء القرآن أشرف من ضياء الأنوار ، لأن القرآن يعشو إليه القلب ، والنور يعشو إليه الطرف(٥) .

---

(١) حقائق التأويل ١٦٨ ، ١٦٩ (٢) الزمر ٧٣ .
(٣) المرجع السابق ١٦٩ ، ١٧٠ (٤) التغابن ٨ .
(٥) تلخيص البيان ٣٣٥ .

وفى قوله تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »(١) يقول : وهذه استعارة . والمراد بها اخراج المؤمنين من الكفر إلى الإيمان، ومن الغى إلى الرشاد ، ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم .

وكل ما فى القرآن الكريم من ذكر الاخراج من الظلمات إلى النور ، فالمراد به ما ذكرنا . وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التى يتسكع فيها الخابط ، ويضل القاصد ، والايمان كالنور الذى يؤمه الحائر ، ويهتدى به الجائر ، لأن عاقبة الايمان مضيئة بالايمان والثواب ، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب . وفى لسانهم وصف الجهل بالعمى والعمه ، ووصف العلم بالبصر والجلية ، يقال قد غم عليه أمره ، وأظلم عليه رأيه ، اذا كان جاهلا بما يرتئيه ويفعله ، ويقال فى نقيض ذلك : هو على الواضحة من أمره ، والجلية من رأيه . إذا كان عالما بما يورد ويصدر فيما يأتى ويذر(٢) .

إن تشبيه الكفر والايمان بالظلمات والنور ، لا يحتاج إلى فضل بيان لوضوحه ، ولكن الشريف لا يقف عند ذلك ، بل يتناول أسرار التشبيه فى الآية الكريمة ، ليرسم صورة الضال المتخبط فى ظلام الحيرة ، والمهتدى المستريح إلى ضياء اليقين . ثم يردف ذلك بعبارتين تؤكدان مذهب العرب فى الحديث عن الجاهل الأعمى فى تصرفه ، والعالم الخبير بموقفه كيلا يدع فى القول زيادة .

ولدى الشريف ما يعرف بالحاسة البيانية ، تلك التى تدرك مناحى الجمال فى كل لفظ يسطر ، فهو حين يقرأ الآية يتأملها تأمل الفنان المستشف الذى

---

(١) البقرة الآن ٢٥٧

(٢) المرجع السابق ١٢١

يدرك سرائر الوشائج بين كل لفظ وأخيه ، فلا تشغله الصورة العامة بانطباعها الساحر عن الوقوف لدى كل ملمح من ملامحها الوضيئة(١) .

ويقول : فى قوله تعالى «فاصدع بما تؤمر . وأعرض عن المشركين(٢)». وهذه استعارة ، لأن الصدع فى الحقيقة إنما يصح فى الأجسام ، لا فى الخطاب والكلام والفرق والصدع والفصل فى كلامهم بمعنى واحد . ومن ذلك قولهم المصيب فى كلامه قد طبق المفصل ، ويقولون فلان يفصل الخطاب، أى يصيب حقائقه ، ويوضح غوامضه ، فكأن المعنى فى قوله سبحانه « فاصدع بما تؤمر » أى أظهر القول وبينه فى الفرق بين الحق والباطل من قولهم صدع الرداء ، إذا شقه شقا بينا ظاهرا ، ومن ذلك صدع الزجاجة إذا استطار بها الشق ، واستبان فيها الكسر .

وإنما قال سبحانه « فاصدع بما تؤمر » ولم يقل فبلغ ما تؤمر ، لأن الصدع ههنا أعم ظهورا ، وأشد تأثيرا .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك — والله أعلم — أن بالغ فى إظهار أمرك ، والدعاء إلى ربك ، حتى يكون الدين فى وضوح الصبح ، لا يشكك نهجه ، ولا يظلم فجه ، مأخوذا ذلك من « الصديع »(٣) لشأنه ووضوح إعلانه(٤) .

ويقول فى قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان »(٥) .

---

(١) رابطة العالم الاسلامى د/ محمد رجب البيومى ص ٥٢

(٢) الحجر ٩٤

(٣) الصديع : الصبح سمى بذلك لانصداعه عن ظلمات الليل .

(٤) تلخيص البيان ١٨٧

(٥) الرحمن ٣١

وهذه استعارة ، وقد كان والدى الطاهر الأوحد ذو المناقب أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوى رضى الله عنه وأرضاه سألنى عن هذه الآية . فى عرض كلام جرى ذكرها ، فأجبته فى الحال بأعرف الأجوبة المقولة فيها، وهو أن يكون المراد بذلك ـ سنعمد لعقابكم ، ونأخذ فى جزائكم على مساوىء أعمالكم ، وأنشدته بيت جرير كاشفا عن حقيقة هذا المعنى وهو قوله :

الآن وقد فرغت إلى نمير فهذا حين صرت لها عذابا

فقال فرغت إلى نمير ، كما يقول عمدت إليها ، فأعلمنا أن معنى فرغت هٰهنا معنى « عمدت ، وقصدت ، ولو كان يريد الفراغ من الشغل لقال فرغت لها ، ولم يقل فرغت إليها .

وقال بعضهم إنما قال سبحانه « سنفرغ لكم ، ولم يقل « سنعمد ، لأنه أراد أن سنفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تجميع فيه(١) ، ولا اشتغال بغيره ، وكان الفارغ له ـ فى الغالب ـ هو المتوفر عليه دون غيره ، فدلنا بذلك على المبالغة فى الوعيد من الجهة التى هى أعرف عندنا ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ ، وأدل الكلام على معنى الايعاد .

وقال بعضهم : أصل الاستعارة موضوع على مستعار منه ، ومستعار له. فالمستعار منه أصل ، وهو أقوى ، والمستعار له فرع وهو أضعف ، وهذا مضطرد فى سائر الاستعارات . فإذا تقرر ذلك كان قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان من هذا القبيل .

فالمستعار منه هٰهنا ما يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال العباد ، والمستعار له ، ما لا يجوز فيه الشغل ؛ وهو أفعال الله تعالى ؛ والمعنى الجامع لهما الوعيد، إلا أن الوعيد بقول القائل : سأتفرغ لعقوبتك ، أقوى من الوعيد بقوله

---

(١) التجميع : الممازحة ، والماجنة فى العمل وعدم أخذه مأخذ الجد .

«سأعاقبك» من قبل أنه كأنما قال سأتجرد لمعاقبتك كأنه يريد استفراغ قوته في العقوبة له . ثم جاء القرآن على مطرح كلام العرب ، لأن معناه أسبق إلى النفس ، وأظهر للعقل والمراد به تغليظ الوعيد ، والمبالغة في التحذير .

ومثل ذلك قوله تعالى في المدثر «ذرني ومن خلقت وحيدا»(١) فالمستعار منه ههنا ما يجوز فيه المنع ، وهو أفعال العباد ، والمستعار له مالا يجوز فيه المنع ، وهو أفعال القديم سبحانه — كما قلنا أولا — والمعنى الجامع لهما التخويف والتهديد . والتهديد بقول القائل «ذرني وفلانا» إذا أراد المبالغة في وعيده — أقوى من قوله خوف فلانا من عقوبتي ، وحذره من سطوتي . وهذا بين بحمد الله تعالى(٢) .

ويقول في قوله تعالى : وآية لهم الليل نسلخ منـــه النهار . فإذا هم مظلمون(٣) .

وهذه استعارة ، والمراد نخرج منه النهار . ونستقصي تخليص أجزائه حتى لا يبقى من ضوء النهار شيء مع ظلمة الليل ، فإذا الناس قد دخلوا في الظلام . وهذا معنى قوله تعالى «فإذا هم مظلمون» . كما يقال أفجروا إذا دخلوا في الفجر . وأنجدوا ، وأتهموا إذا دخلوا نجدا وتهامة .

والسلخ إخراج الشيء مما لابسه ، والتحم به ، فكل واحد من الليل والنهار متصل بصاحبه . إتصال الملابس بأبدانها ، والجلود بحيوانها ، ففي تخليص أحدهما من الآخر حتى لا يبقى معه طرف ، ولا عليه منه أثر آية باهرة ، فسبحان الله رب العالمين(٤) .

---

(١) المدثر ١١ (٢) تلخيص البيان ٣٢٢ ، ٣٢٣
(٣) يس ٣٧ (٤) المرجع السابق ٢٧٤

ويقول في قوله تعالى « قال رب إني وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيبا »(١) .

وهذه من الاستعارات العجيبة ، والمراد بذلك : العبارة عن تكاثر الشيب في الرأس ، حتى يقهر بياضه ، وينصل سواده . وفي هذا الكلام دليل على سرعة تضاعف الشيب ، وتزيده ، وتلاحق مدده حتى يصير في الاسراع والانتشار كاشتعال النار يعجز مطفيه ، ويغلب متلافيه(٢) .

ويقول في قوله تعالى « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض »(٣) .

وهذه استعارة لأن أصل الموجان من صفات الماء الكثير ، وإنما عبر سبحانه بذلك عن شدة اختلافهم ، ودخول بعضهم في بعض لكثرة أضدادهم تشبيها بموج البحر المتلاطم والتفاف الدبا المتعاظل(٤) .

وفي قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا »(٥) يقول : وهذه استعارة ، لأن صفة القدوم لاتصح إلا على من تجوز عليه الغيبة فتجوز منه الأوبة ، والله سبحانه شاهد غير غائب ، وقائم غير زائل.

فالمعنى : وقصدنا إلى ما عملوا ، أو عمدنا إلى ما عملوا . وذلك كقول القائل : قام فلان بفلان في الناس : إذا أظهر ذمه وعيبه ، وليس يريد أنه نهض عن قعود ، وتحفز بعد استقرار وسكون ، وإنما يريد أنه قصد إلى سبه ، وتظاهر بثلبه . وقال الشاعر :

فإن أباكم تارك ما سألتمو فمهما أتيتم فاقدموه على علم

---

(١) مريم ٤ (٢) تلخيص البيان ٢٢٠

(٣) الكهف ٩٩

(٤) الدبا : الجراد الصغير ، أو النمل . والمتعاظل : المتراكب بعضه في بعض . أنظر : المرجع السابق ٢١٧ (٥) الفرقان ٢٣ .

يقال قدمت هذا الأمر ، وأنا أقدمه ، اذا أتيته وقصدته(١) .

ويقول فى قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ربنا رب السموات والأرض »(٢) .

وهذه إستعارة لأن الربط هو الشد يقال : ربطت الأسير إذا شددته بالحبل والقد ، والمراد بذلك شددنا على قلوبهم ، كما تشد الأوعية بالأوكية ، فتنضم على مكنوناتها ، ويؤمن التبدد على ما استودع فيها . أى فشددنا على قلوبهم لئلا تنحل معاقد صبرها ، وتهفو عزائم جلدها ، ومن ذلك قول القائل لصاحبه : ربط الله على قلبك بالصبر(٣) .

ويقول فى قوله تعالى : « واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم »(٤) .

وهذه من محاسن الاستعارة ، وحقيقة الهوى النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط . والمراد به ههنا المبالغة فى صفة الأفئدة بالنزوع إلى المقيمين بذلك المكان ، ولو قال سبحانه : تحن إليهم ، لم يكن فيه من الفائدة ما فى قوله سبحانه « تهوى إليهم » لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم فى مكانه ، والهوى يفيد انزعاج الهاوى من مستقره »(٥) .

ويقول فى قوله تعالى : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة »(٦) .

وحقيقة القصم كسر الشىء الصلب ، وجعل ههنا مستعاراً للعبارة عن اهلاك الجبارين من أهل القرى ، أصلب ما كانوا عيداناً ، وأمنع أركاناً(٧) .

---

(١) تلخيص البيان ٢٤٩
(٢) الكهف ١٤
(٣) المرجع السابق ٢٠٧
(٤) إبراهيم ٣٧
(٥) تلخيص البيان ١٨٤
(٦) الأنبياء ١١
(٧) المرجع السابق ٢٢٧

ويقول فى قوله تعالى: «فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره»(١)

وهذه استعارة. والمراد بالخوض ههنا مناقلة الحديث، والضرب فى أقطاره والتفسح فى أعطانه، استثارة لكرائمه، وبحثاً عن غوامضه، تشبيهاً بخائض الماء الذى يثير قراره، ويسبر غماره(٢).

ويقول فى قوله تعالى: «قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً(٣)».

وهذه استعارة، وحقيقة التسويل، تزيين الإنسان لغيره أمراً غير جميل جعل سبحانه أنفسهم لما قوى فيها الإقدام على ذلك الأمر المذموم، بمنزلة الغير الذى يحسن لهم فعل القبيح، أو يحملهم على ركوب العظيم(٤).

ويقول فى قوله تعالى: «والصبح إذا أسفر(٥)».

وهذه استعارة، والمراد بها انكشاف الصبح بعد استتاره، أو وضوحه بعد إلتباسه، تشبيهاً بالرجل المسفر الذى قد حط لثامه، فظهرت مجالى وجهه، ومعالم صورته(٦).

ويقول فى قوله تعالى: «إذا رأتهم من مكان بعيد. سمعوا لها تغيظاً وزفيراً(٧)».

وفى هذه الآية استعارتان: إحداهما: قوله سبحانه: «إذا رأتهم» وهو فى وصف نار جهنم، نعوذ بالله منها، ولا تصح صفة الرؤية عليها. وإنما المراد — والله أعلم — إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها من يوصف بالرؤية لرآهم. وهذا من لطائف التأويل، وغرائب التفسير.

---

(١) النساء ١٤٠
(٢) تلخيص البيان ١٢٩
(٣) يوسف ١٨
(٤) تلخيص البيان ١٧١
(٥) المدثر ٣٤
(٦) المرجع السابق ٣٥٤
(٧) الفرقان ١٢

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : « سمعوا لها تغيظا وزفيرا » . وهاتان الصفتان من صفات الحيوان ، ويختص التغيظ بالإنسان لأن الغيظ من أعلى منازل الغضب ، والغضب لا يوصف بحقيقته إلا الناس ، والزفير قد يشترك في الصفة به الانسان ، وغير الإنسان .

وإنما المراد بهاتين الصفتين المبالغة في وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عادة المغيظ الغضبان(١) .

وفي قوله تعالى : « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ(٢)» . يقول : وفي هذا الكلام استعارتان إحداهما: قوله سبحانه : « سمعوا لها شهيقا وهي تفور » والشهيق الصوت الخارج من الخوف ، عند تضايق القلب من الحزن الشديد . والكمد الطويل، وهو صوت مكروه السماع ، فكأنه سبحانه وصف النار بأن لها أصواتاً مقطعة تهول من سمعها ويصعق من قرب منها .

والاستعارة الأخرى : قوله سبحانه : « تكاد تميز من الغيظ » ، من قولهم تغيظت القدر إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة به مخصوصة بالإنسان المغضب فكأنه سبحانه وصف النار — نعوذ بالله منها — بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه إذا بلغ ذلك الحد أن يبالغ في الإنتقام ، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام وقد جرت عادتهم في صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن يقولوا يكاد فلان يتميز غيظا ، أي تكاد أعضاؤه المتلاحمة تزايل، وأخلاطه المتجاورة تتنافى وتتباعد من شدة اهتياج غيظه ، واحتدام طبعه ، فأجرى سبحانه هذه الصفة — التي هي أبلغ صفات الغضبان على نار جهنم ، لما وصفها بالغيظ ، ليكون التمثيل في أقصى منازله وأعلى مراتبه(٣) .

---

(١) المرجع السابق ٢٤٨ (٢) الملك ٧ ، ٨

(٣) تلخيص البيان ٣٣٩ ، ٣٤٠

ويقول فى قوله تعالى : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج(١) » .

وهذه استعارة لأن المراد ههنا باهتزاز الأرض - والله أعلم - تشبيهها بالحيوان الذى همد بعد حراكه ، وخشع بعد تطاله وإشرافه لعلة طرأت عليه ، فأصارته إلى ذلك ثم أفاق من تلك الغمرة ، وصحا من تلك السكرة فتحرك بعد همودة ، واستهب بعد ركوده ، وكذلك حال الأرض ، إذا أماتها الجدب ، وأهمدها المحل ، ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله ، وبلها القطر ببلاله ، واهتزت بالنبات ناضرة ، ورطبت بعد الجفوف متزيلة . ذلك تقدير العزيز العليم(٢) .

وفى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا(٣) » يقول : « وهذه استعارة . ومعناها تمسكوا بأمر الله لكم ، وعهده إليكم ، والحبال : العهود فى كلام العرب وإنما سميت بذلك لأن المتعلق بها ينجو مما يخافه كالمتشبث بالحبل إذا وقع فى غمرة أو ارتكس : فى هوة فالعهود يستأمن بها من المخاوف والحبال يستأمن بها من المتالف فلذلك وقع التشابه بينهما(٤) » .

وفى قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض . فزادهم الله مرضا(٥) » . يقول : والمرض فى الأجسام حقيقة وفى القلوب استعارة لأنه فساد فى القلوب كما أنه فساد فى الحقيقة وإن اختلفت جهة الفساد فى الموضعين(٦) » .

---

(١) الحج ٥ — (٢) المرجع السابق ٣٣٦
(٣) آل عمران ١٠٣ — (٤) تلخيص البيان ١٢٤
(٥) البقرة الآية ١٠ — (٦) المرجع السابق ١١٣

ويقول فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى . فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين(١) » .

وهذه استعارة والمعنى أنهم استبدلوا الغى بالرشاد والكفر بالإيمان فخسرتهم صفقتهم ولم تربح تجارتهم . وإنما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم التجارة لما جاء فى أول الكلام بلفظ الشرى تأليفاً لجواهر النظام وملاءمة بين أعضاء الكلام(٢).

وفى قوله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون(٣) » يقول :

وهذه استعارة لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة التى يرجم بها كالحجارة وغيرها . فجعل سبحانه إيراد الحق على الباطل بمنزلة الحجر الثقيل الذى يرض ما صكه ويدمغ ما مسه ولما بدأ تعالى بذكر قذف الحق على الباطل وفى الاستعارة حقها وأعطاها واجبها فقال سبحانه : « فيدمغه » ولم يقل فيذهبه ويبطله لأن الدفع إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال وعلى طريق الغلبة والاستعلاء فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه والدماغ مقتل . ولذلك قال سبحانه من بعد « فإذا هو زاهق » . والزاهق الهالك(٤) .

ويقول فى قوله تعالى : « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى(٥) » وهذه استعارة . والمراد بها إزالة لفف(٦) كان فى لسانه فعبر عنه

---

(١) البقرة الآية ١٦ (٢) تلخيص البيان ١١٤
(٣) الأنبياء ١٨ (٤) المرجع السابق ٢٢٨
(٥) طه ٢٧
(٦) اللفف : إلتواء عصب فى اللسان يعطله عن الكلام .

بالعقدة وعبر عن مسألة إزالته بحل العقدة ملاءمة بين النظام ومناسبة بين الكلام(١) .

وفي قوله تعالى: «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون(٢) » .

يقول : وهذه استعارة لأن حقيقـــة الذوق إنما تكون في المطاعم والمشارب لا في الكسى والملابس . وإنما خرج هذا الكلام مخرج الخبر عن العقاب النازل بهم والبلاء الشامل لهم وقد عرف في لسانهم أن يقولوا لمن عوقب على جريمة أو أخذ بجريرة: ذق غب فعلك واجن ثمرة جهلك وإن كان عقوبته ليست مما يحس بالطعم ويدرك بالذوق فكأنه سبحانه لما شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة حسن أن يقول تعالى: فأذاقهم ذلك أي أوجدهم مرارته كما يجد الذائق مرارة الشيء المرير ووخامة الطعم الكريه .

وإنما قال سبحانه « لباس الجوع » ولم يقل طعم الجوع والخوف لأن المراد بذلك — والله أعلم — وصف تلك الحال بالشمول لهم والاشتمال عليهم كاشتمال الملابس على الجلود لأن ما يظهر منهم عن مضيض الجوع وأليم الخوف من سوء الأحوال وشحوب الألوان وضئولة الأجسام كاللباس الشامل لهم والظاهر عليهم(٣) .

ويقول في قوله تعالى : « وجعلنـــا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه .

---

(١) تلخيص البيان ١١٤
(٢) النحل ١١٢
(٣) المرجع السابق ١٩٦

وفى آذانهم وقرا »(١) وهذه استعارة لأنه ليس هناك على الحقيقة كنان على قلب ، ولا وقر فى سمع ، وإنما المراد أنهم لاستثقالهم سماع القرآن عند أمر الله سبحانه نبيه عليه السلام بتلاوته على أسماعهم ، وافراغه فى آذانهم كالذين على قلوبهم أكنة دون علمه ، وفى آذنهم وقر دون فهمه ، وإن كانوا من قبل نفوسهم أتوا ، وبسوء اختيارهم أخذوا ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما ذموا على اطراحه ، ولعذروا بالاضراب عن استماعه(٢) .

وفى قوله تعالى : فنبذوه وراء ظهورهم »(٣) . يقول : وهذه استعارة والمراد بها أنهم غفلوا عن ذكره ، وتشاغلوا عن فهمه ، يعنى الكتاب المنزل عليهم ، فكان كالشىء الملقى خلف ظهر الانسان ، لا يراه فيذكره ، ولا يلتفت إليه فينظره(٤) .

ويقول فى قوله تعالى « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »(٥) . وهذه استعارة ، والمراد بها الرجوع عن دينه ، والتقاعس اتباع طريقه ، فشبه سبحانه الرجوع فى الارتياب بالرجوع على الأعقاب(٦) .

وفى قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار . فأنقذكم منها »(٧) .

يقول : « وهذه استعارة لأنه تعالى شبه المشفى بسوء عمله على دخول النار بالمشفى لزلة قدمه على الوقوع فى النار(٨) .

ويقول فى قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه »(٩) .

---

(١) الاسراء ٤٦
(٢) تلخيص البيان ٢٠١
(٣) آل عمران ١٨٧
(٤) المرجع السابق ١٢٦
(٥) آل عمران ١٤٤
(٦) تلخيص البيان ١٢٥
(٧) آل عمران ١٠٣
(٨) المرجع السابع ١٢٤
(٩) الحج ١١

وهذه استعارة ، والمراد بها — والله أعلم — صفة الانسان المضطرب الدين ، الضعيف اليقين الذى لم تثبت فى الحق قدمه ، ولا استمرت عليه مريرته ، فأوهى شبهة تعرض له ينقاد معها ، ويفارق دينه لها ، تشبيها بالقائم على حرف مهواة ، فأدنى عارض يزلقه ، وأضعف دافع يطرحه(١).

وفى قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار . فانهار به فى نار جهنم(٢) .

يقول : وهذه استعارة ، والمراد بها ذكر ما بناه المنافقون من مسجد الضرار(٣) .

بعد ما بنى المؤمنون من المسجد المعروف بمسجد قباء(٤) .

لأن المؤمنين وضعوا هذا البناء وهم مؤمنون متقون عارفون موقنون ، فكأنما وضعوه على قواعد من الايمان ، وأساس من الرضوان .

---

(١) تلخيص البيان ٢٣٧ (٢) التوبة ١٠٩

(٣) مسجد الضرار : هو المسجد الذى بناه المنافقون لاضرار المسلمين، وتفريق كلمتهم ، وقد سألوا النبى عند رجوعه من تبوك أن يأتى مسجدهم هذا ليصلى فيه ، فأنزل الله فيه قوله تعالى : « الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . والله يشهد انهم لكاذبون . لاتقم فيه أبدا » . وقد أمر النبى عليه السلام بهدم هذا المسجد الظالم أهله ، فحرق وهدم واتخذ موضعه مكانا للقمامة .

(٤) مسجد قباء هو المسجد الذى أسسه النبى على التقوى من أول يوم نزل فيه قباء وهى بلدة على بعد ميلين من جنوب المدينة .

والمنافقون انما وضعوا ذلك البناء كيدا المؤمنين ، وارصادا للمسلمين مكأنهم وضعوه على شفا جرف هـــار متقوض ، وأساس واه فنقض ، فكأنما انهار بهم فى نار جهنم ، اى أسقطهم ذلك الفعل فى عذاب النار ، ودائم العقاب ، وهذه من أحسن الاستعارات(١) .

المجاز المرسل :

يقول فى قوله تعالى : « واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار(١) .

والمراد — والله أعلم — أولى القوة فى العبادة والبصائر فى الطاعة ، ولايجوز أن يكون المراد بالأبصار ههنا الجوارح والحواس لأن سائر الناس يشاركون الأنبياء عليهم السلام فى خلق ذلك لهم ، ولايحسن مدح الإنسان بأن له يداوقدما ، وعيناً وفما ، وإنما يحسن أن يمدح بأن له نفساً شريفة وهمة منيفة ، وأفعالا جميلة ، وخلالا محمودة .

وقيل أيضاً معنى أولى الأيدى ، أى أولى النعم فى الدين ، لأن ورود اليد بمعنى النعمة مشهور فى كلامهم ، فإنهم أسدوا الى الناس أيدياً ، بدعايتهم الى الإيمان ، وافتلاتهم من حبائل الضلال(٢) .

وفى قوله تعالى : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه . فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه(٣) .

---

(١) تلخيص البيان ١٤٩ .
(١)ص ٤٥
(٢) تلخيص البيان ٢٨١
(٣) الكهف ٥٧

يقول : المراد بذكر اليدين ههنا ما كسبه الإنسان من العمل الذى يجر العقاب ، ويوجب النكال ، ومثله فى القرآن كثير ، كقوله سبحانه : ذلك بما قدمت أيديكم ، وذلك على طريقة للعرب معروفة ، وهو أن يقولوا للجانى المعاقب: هذا ماجنت يداك ، وهذا ما كسبت يداك ، وان لم تكن جنايته عملا بيد ، بل كانت قولا بفم ، لأن الغالب على أفعال الفاعلين أن يفعلوها بأيديهم فحمل الأمر عن الأعرف ، وخرج على الأكثر ، وإن لم يقع ذلك فى كل حال ، وإنما الحكم الأظهر والقول على الأكثر(١) .

وفى قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . وفقد رأيتموه وأنتم تنظرون(٢)

يقول : إن الموت لايلقى ولا يرى ، وإنما أراد سبحانه رؤية أسبابه من صدق مصاع(٣) ، وتتابع قراع ، أو رؤية آلاته كالرماح المشرعة ، والسيوف المخترطة(٤)

ويقول فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »(٥) . إنما أراد سبحانه قطع يمين السارق ويمين السارقة ، وذلك مشهور فى اللغة(٦)

وفى قوله تعالى : وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه(٧) يقول : العرب تقيم العنق والرقبة مقام الانسان نفسه ، فيقولون لى فى رقبة فلان

---

(١) تلخيص البيان ٢١٥ (٢) آل عمران ١٤٣
(٣) المصاع : مصدر ماصع أى قاتل وجالد
(٤) تلخيص البيان ١٢٥ (٥) المائدة الآية ٣٨
(٦) تلخيص البيان ٣٣٧ (٧) الاسراء ١٣

دم . ولى فى رقبته دين أى عنده ، وفلان اعتق رقبة إذا أعتق عبداً أو أمة ، ويقول الداعى فى دعائه اللهم اعتق رقبتى من النار ، وليس يريد العنق المخصوصة وإنما يريد الذات والجملة(١)

ويقول فى قوله تعالى : ووهبنا له من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا ،(٢)

المراد بذكر اللسان ههنا — والله أعلم — الثناء الجميل الباقى فى أعقابهم والخالف فى آبائهم . والعرب تقول : جاءنى لسان فلان يريدون مدحه أو ذمه ولما كان مصدر المدح والذم عن اللســـان عبروا عنهما باسم اللسان (٣) .

وفى قوله سبحانه « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى.وهذا لسان عربى مبين (٤) » .

يقول : إن المراد باللسان ههنا جملة القرآن وطريقته لا العضو المخصوص الذى يقع الكلام به ، وذلك كما يقول العرب فى القصيدة هذه لسان فلان أى قوله . قال شاعرهم :

لسان السوء تهديها إلينا ... وخنت وماحسبتك أن تخونا

أى مقالة السوء . ومثل ذلك قول الآخر :

ندمت على لسان كان منى ... وددت بأنه فى جوف عكم(٥)

أى على قول سبق منى ، لأن الندم إنما يكون على الفعل والكلام ،

---

(١) المرجع السابق ١٩٩ (٢) مريم ٥٠
(٣) تلخيص البيان ٢٢٠ . (٤) النحل ١٠٣
(٥) العكم بكسر العين : العدل الذى توضع فيه الأشياء .

لاهل الأعضاء والأعيان . وإنما سمى القول لسانا لأن إنما يكون باللسان ويصدر عن اللسان (١) .

ويقول فى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم (٢) .

المراد بالقدم هنا : السابقة فى الايمان ، والتقدم فى الاخلاص .

والعبارة عن ذلك بلفظ القدم غاية فى البلاغة ، لأن بالقدم يكون السبق والتقدم فسميت قدما لذلك ، وإن كان التأخر أيضا يكون بها ، كما يكون القدم بخطوها فإنما سميت بأشرف حالاتها ، وأنبه متصرفاتها(٣) .

وفى قوله تعالى : «واسأل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها(٤) .

يقول : المراد : واسأل أهل القرية التى كنا فيها ، وأصحاب العير التى أقبلنا فيها ، ومما يكشف عن ذلك قوله تعالى فى السورة التى يذكر فيها الأنبياء عليهم السلام « ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين(٥) والقرية هى الأبنية المفروشه والخطط المسكونه ، لا يصح منها عمل الخبائث ، فعلم أن المراد بذلك أهلها(٦) :

ويقول فى قوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا »(٧) .

والمعنى : واصنع الفلك بأمرنا . ونحن نرعاك ونحفظك . ليس أنه هناك عينا تلحظ ، ولا لسانا يلفظ ، وذلك كما يقول القائل : أنا بعين الله ، أى بمكان من حفظ الله ، ومن كلامهم الظاعن المشيع ، والمقيم المودع صحبتك عين الله ، أى رعاية الله وحفظه(٨) .

---

(١) تلخيص البيان ١٩٥
(٢) يونس ٢
(٣) المرجع السابق ١٠٣
(٤) يوسف ١٧٣
(٥) الأنبياء ٧٤
(٦) تلخيص البيان ١٧٣
(٧) الاعراف ٣٧
(٨) تلخيص البيان ١٦١

المجاز العقلي :

يقول في قوله تعالى : « رب انهن اضللن كثيرا من الناس »(١) .

أضاف تعالى ضلال القوم إلى الأصنام ، إذ جعلوها سببا اضلالهم ، وهي جماد لا يكون منها صرف عن طاعة ، ولا دعاء إلى معصية .

ومثل هذا من كلامهم إن الرجل يشغف بالمرأة ، فإذا أعظم وجده بها وقلقه من أجلها قال لها : قد أسهرت ليلي ، وأمرضت قلبي ، وكدرت صفاء عيشي ، ولعلها لم تعلم بشيء من أمره ، ولم تشعر بأوقات قلقه وسهره ، ولكنه لما اعتقد أنها سبب ذلك .

وإن لم تفعله جاز أن ينسب إليها فعله ، وآكد من ذلك ، أنها لو شعرت بما يقاسيه فيها ، ويعانيه من حبها ، وكانت ذات عفة تحصنها ، وتحسم المطامع عنها ، فزجرته عن نفسها ، وخوفته عواقب الاشتغال بها ، فكان ذلك سببا لزيادة كلفه بها ، وتضاعف شغفه ، فانحلت قوى أمره . واسترخى وترصبره . وطال بها سهر ليله . وتشاغل عن مصالح نفسه كان جائزا أن ينسب ذلك إليها فيقول : إنها أسهرت ليلي . وأطالت فكري وانتطعتني من مصالحي ، وذهبت بي عن مراشدي . وهي لم تعظه إلا ليتعظ ، ولم تزجره إلا ليزدجر . وإنما حسن منه أن ينسب جميع ما ذكرنا إليها . لما اعتقد أنها سببه . ومن أجلها كان همه وقلقه(٢)

وفي قوله تعالى : فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة(٣) :

---

(١) إبراهيم ٣٦ .

(٢) حقائق التأويل في متشابه التنزيل ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) مريم ٢٣ .

يقول : المعنى لجاء بها المخاض ، أو ألجأها المخاض إلى جذع النخلة ، لتجعله إسنادا لها ، أو عمادا لظهرها ، وهى التى لجأت الى النخلة ، ولكن ضرب المخاض لما كان سببا لذلك ، حسن أن ينسب الفعل إليه فى إلجائها ، والمجىء بها(١) .

ويقول فى قوله تعالى : «ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون»(٢) .

وقال بعضهم : إنما نسب تعالى الأكل إليهن ، لأن الناس يأكلون فيهن ما ادخروه ، ويستنفذون ما أعدوه ، كما يقال يوم آمن ، وليل خائف ، أى يأمن الناس فى هذا ، ويخافون فى هذا(٣) .

وفى قوله تعالى : «والليل إذا سجى»(٤) يقول : ومعنى «سجى» أى سكن ، والليل لا يسكن ، وإنما تسكن حركات الناس فيه ، فأجرى سبحانه صفة السكون عليه ، لما كان السكون واقعا فيه(٥) .

ويقول فى قوله تعالى : «وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا . بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أندادا»(٦) .

والمراد بمكر الليل والنهار ، ما يتوقع من مكرهم فى الليل والنهار ، فأضاف تعالى المكر إليهما لوقوعه فيهما ، وفيه أيضا زيادة فائدة ، وهى دلالة الكلام على أن مكرهم كان متصلا غير منقطع(٧) .

---

(١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن ٢٢٠
(٢) يوسف ٤٨ (٣) المرجع السابق ١٧٢
(٤) الضحى ١ ، ٢ (٥) تلخيص البيان ٣٦٧
(٦) سبأ ٣٣ (٧) المرجع السابق ٢٦٧

وفى قوله تعالى : « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد(١) يقول : داحضة هنا بمعنى مدحوضه ، وإذا نسب الفعل إليها فى الدحوض كان أبلغ فى ضعف سنادها ، ووهاء عمادها ، فكأنها هى المبطلة لنفسها من غير مبطل أبطلها لظهور أعلام الكذب فيها ، وقيام شواهد التهافت عليها(٢) .

ويقول فى قوله تعالى : « خلق من ماء دافق »(٣) وحقيقة هذا الماء مدفوق لا دافق ، ولكنه خرج على مثل قولهم سر كاتم ، وليل نائم(٤) .

وفى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية »(٥) يقول : وكان الوجه أن يقال فى عيشة مرضية ، ولكن المعنى خرج على مخرج قولهم : شعر شاعر ، وليل ساهر ، إذا شعر فى ذلك الشعر ، وسهر فى ذلك الليل ، فكأنهما وصفا بما يكون فيهما لا بما يكون منهما ، فبان أن تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الإنسان فيها حاله ، جاز أن توصف هى بالرضا ، فيقال : راضية على المعنى الذى أشرنا إليه(٦) .

ويقول فى قوله تعالى : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم »(٧) .

إن العزم لا يوصف بحقيقته إلا الانسان المميز الذى يوطن النفس على فعل الأمر قبل وقته عقدا بالمشيئة على فعله ، فيصح أن يسمى عازما عليه ، وإنما قال تعالى « عزم الأمر » مجازا ، أى قويت العزائم على فعله ، فصار

---

(١) الشورى ١٦ (٢) تلخيص البيان ٢٩٧
(٣) الطارق ٦ (٤) تلخيص البيان ٣٦٣
(٥) الحاقة ٢١ (٦) المرجع السابق ٣٤٤
(٧) محمد ٢١

كالعازم فى نفسه(١) .

الكناية :

يقول الشريف فى قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق . ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون »(٢) .

والمراد الكناية عن هول الأمر وشدته ، وعظم الخطب وفظاعته ، لأن من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة التى يحتاج فيها إلى المماركة ، ويفزع عندها إلى الدفاع والممانعة ، فيكون تشمير الذيول عند ذلك امكن للقراع ، وأصدق للمصاع . وقد جاء فى أشعارهم ذكر ذلك فى غير موضع . قال قيس بن زهير بن جذيمة العبس :

فإن شمرت لك عن ساقها فويها ربيع فلا تسأم

وقال الآخر :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت بكم الحرب فجدوا(٣)

وفى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »(٤) يقول : ليس المراد « اليد » التى هى الجارحة على الحقيقة ، وإنما الأول كناية عن التقتير . والكلام الآخر كناية عن التبذير ، وكلاهما مذموم حتى يقف كل منهما عند حده ، ولا يجرى إلا إلى أمده وقد فسر هذا قوله سبحانه « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما »(٥) .

---

(١) تلخيص البيان ٣٠٨ (٢) القلم ٤٢
(٣) تلخيص البيان ٣٤١ (٤) الاسراء ٢٩
(٥) الفرقان ٦٧

ويقول فى قوله تعالى «ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم »(١) .

والمراد بهذا القول العبارة عن سعة الرزق ، ورفاهية العيش كما يقول القائل : فلان مغمور فى النعيم ، والنعمة من قرنه إلى قدمه(٢) .

وفى قوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى»(٣). يقول : والمراد تخسيس قدرما يصحب الإنسان من الدنيا ، وأن المتعة به قليلة والثوائب كثيرة(٤) .

ويقول فى قوله تعالى : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا »(٥) . يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لا إعتداد بهم ، ولا نباهة لذكرهم فى يوم القيامة ، كما يقال فى التحقير للشىء هذا لاوزن له ، ولا قيمة ، وكما تقول : فلان عندى بالميزان الراجح إذا كان كريما عليك ، أو حبيبا إليك(٦) .

وفى قوله تعالى : « ضرب الله مثلا الذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين »(٧) يقول :

إن وصف المرأة بأنها تحت الرجل ليس يراد به حقيقة الفوق والتحت وإنما المراد أن منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل لقيامه عليها وغلبته على أمرها ، كما قال سبحانه « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على

---

(١) المائدة الآية ٦٦
(٢) تلخيص البيان ١٣٤
(٣) آل عمران ٧٧
(٤) تلخاص البيان ١٢٨
(٥) الكهف ١٠٥
(٦) تلخيص البيان ٢١٨
(٧) المرجع السابق ٢١٩
(٨) التحريم ١٠

بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم »(١) وكما يقول القائل : فلان الجندى تحت يدى فلان الأمير إذا كان من شحنه عمله ، أو متصرفا على أمره ، وكما يقول الآخر لا آخذ رزقى من تحت يدى فلان إذا كان هو الذى يلى إطلاق رزقه، وتوفيه مستحقة وذلك مشهور فى كلامهم(٢) .

ويقول فى قوله تعالى : « ثم استوى على العرش »(٣) .

إن حقيقة الاستواء ، إنما يوصف بها الأجسام التى تعلو البساط ، وتميل وتعتدل ، والمراد بالاستواء ههنا الاستيلاء بالقدرة والسلطان ، لا بحلول القرار والمكان . كما يقال : استوى(٤) فلان الملك على سرير ملكه ، بمعنى استولى على تدبير الملك ، وملك مقعد الأمر والنهى ، وحسن صفته بذلك، وإن لم يكن له فى الحقيقة سرير يقعد عليه ، ولا مكان عال يشار إليه ، وإنما المراد نفاذ أمره فى مملكته ، واستيلاء سلطانه على رعيته .

فإن قيل فالله سبحانه مستول على كل شىء بقهره وغلبته ونفاذ أمره وقدرته ، فما معنى اختصاص العرش بالذكر ههنا ؟ قيل — كما ثبت — أنه تعالى رب لكل شىء ، وقد قال فى صفة نفسه « رب العرش العظيم »(٥) .

فإن قيل فما معنى قولنا « عرش الله » إن لم يرد بذلك كونه عليه قيل كما يقال : بيت الله ، وإن لم يكن فيه ، والعرش فى السماء تطوف به الملائكة تعبدا ، كما أن البيت فى الأرض تطوف به الخلائق تعبدا(٦) .

---

(١) النساء ٣٤ — (٢) المرجع السابق ٣٣٨

(٣) يونس ٣ — (٤) ومنه قول الراجز

قد استوى بشر على العراق — من غير سيف ودم مهراق

(٥) المؤمنون ٨٦ — (٦) تلخيص البيان ١٠٤

وفى قول تعالى : « وثيابك فطهر »(١) . يقول : الثياب ههنا كناية عن النفس أو عن الأفعال والأعمال الراجعة إلى النفس .

قال الشاعر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أخى ثقة إزارى

قيل أراد فدى لك نفسى . وكذلك قول الفرزدق :

سكنت جروتها(٢) وقلت لها اصبرى

وشددت فى ضيق المقـــام إزارى

أى شددت نفسى ، وذمرت قلبى والإزار والثياب يتقارب معناهما . وعلى هذا فسروا قول امرىء القيس :

« فسلى ثيابى من ثيابك تنسل »(٣)

أى نفسى من نفسك أو قلبى من قلبك .

ويقولون : فلان طاهر الثياب ، أى طاهر النفس ، أو طاهر الأفعال . فكأنه سبحانه قال : ونفسك فطهر ، أو وأفعالك فطهر(٤) .

---

(١) المدثر ٤

(٢) فى ديوانه : فضربت جروتها وقلت لها اصبرى - وضرب الجروة كناية عن العزم والتصميم .

(٣) البيت بكماله هو :

وإن تك قد ساءتك منى خليقة

فسلى ثيـــابى من ثيـــابك تنسل

(٤) تلخيص البيان ٣٥٣

البديع :

يقول الشريف فى قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين »(١) إن حقيقة المكر لا تجوز عليه تعالى . والمراد بذلك إنزال العقوبة بهم جزاء على مكرهم ، وإنما سمى الجزاء على المكر مكرا للمقابلة بين الألفاظ على عادة العرب فى ذلك قد استمارها لسانهم ، واستعادها بيانهم(٢) .

وفى قوله تعالى حاكيا عن المسيح عليه السلام : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك »(٣) إن القديم سبحانه لا نفس له . والمراد تعلم ما عندى . ولا أعلم ما عندك . وتعلم حقيقتى ، ولا أعلم حقيقتك ، أو تعلم مغيبى ، ولا أعلم مغيبك . فكأن فحوى الكلام تعلم ما أعلم ، ولا أعلم ما تعلم(٤) .

ويقول فى قوله تعالى : « تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل »(٥) وهى عبارة عجيبة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا . والمعنى أن ما ينقصه من النهار يزيده فى الليل ، وما ينقصه من الليل يزيده فى النهار . ولفظ الايلاج ههنا أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما فى الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملابسة(٦) .

وفى قوله تعالى : « كلتا الجنتين آتت أكلها . ولم تظلم منه شيئا »(٧)

---

(١) آل عمران ٥٤

(٢) تلخيص البيان ١١٣

(٣) المائدة الآية ١٦

(٤) تلخيص البيان ٣٥

(٥) آل عمران ٣٧

(٦) تلخيص البيان ١١٣

(٧) الكهف ٣٣

يقول : والمراد بقوله تعالى : « ولم تظلم منه شيئا » أى لم تمنع منه شيئا ، وإنما حسن أن يعبر عن هذا المعنى باسم الظلم من حيث كان ثمر تلك الجنة التى هى البستان كالمستحق لمالكها ، فإذا أخذ حقه على كماله وتمامه حسن أن يقال : إنها لم تظلم منه شيئا ، أى لم تمنع منه شيئا ، أى لم تمنع منه ثمارها ومما يقوى ذلك قوله سبحانه « آتت أكلها » أى أعطت أكلها ، فكما جاء بلفظ الاعطاء حسن أن يجىء بلفظ الظلم . ومعناه هونا المنع فكأنه تعالى قال : « أعطت ما استحق عليها » ، ولم تمنع منه شيئا »(١) .

ويقول فى قوله تعالى : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار »(٢) . وهذه مبالغة فى وصف الزيت بالصفاء والخلاصة ، حتى يقارب أن يضىء من غير أن يتصل بنار ، ويناط بذلك(٣) .

جمال النظم القرآنى :

يقول الشريف : « ومن غرائب القرآن ، وبدائعه ، وعجائبه وغوامضه قوله سبحانه « إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم »(٤) .

فذكر على المعنى الذى ذكرناه ، لأنه سبحانه لو قال : « اسمها المسيح » لالبس اللفظ إذ لم يتقدم من ذكر اسم المسيح عليه السلام ما يؤمن معه الإلباس .

فلما جاء فى السورة التى يذكر فيها النساء ما أمن معه الإلباس أعطى سبحانه الكلمة حقها ، ووفاها قسطها ، فأنث ضميرها ، لأن ذكر المسيح عليه السلام قد تقدم فأمن اللبس ، وارتفع الشك . قال سبحانه : إنما المسيح

---

(١) تلخيص البيان ٢١٤
(٢) النور ٣٥
(٣) تلخيص البيان ٢٤٥
(٤) آل عمران ٤٥

عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »(١) . فقال ألقاها ، ولم يقل « ألقاه » لما تقدمت أسماء المسيح وتعريفاته التى تؤمن من الإلباس ، وهى المسيح وعيسى بن مريم .

وإذا نظرت بعين عقلك بان لك ما بين الموضعين من التمييز البين والفرق النير ، وعجبت من عمائق قعر هذا الكتاب الذى لا يدرك غورها ولا ينضب بحرها . فإنه كما وصفه سبحانه بقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »(٤) .

ومن أحسن ماقيل فى تفسير ذلك : « إنه لا يشبهه كلام تقدمه ، ولا يشبهه كلام تأخر عنه ، ولا يتصل بما قبله ، ولا يصل به ما بعده ، فهو الكلام القائم بنفسه ، البائن من جنسه ، العالى على كل كلام قرن إليه وقيس به .

وإنه ليرى فيه عند الانفراد بتلاوته من غرائب الفصاحة وثواقب البلاغة ، ونوادر الكلم ، ما يعجز الخواطر عن الكلام عليه والانصياح من عجائب ما فيه(٣) .

---

(١) النساء ١٧١ (٢) فصلت ٤٢

(٣) حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ١٠٣

الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ

تناول « الزمخشرى » فى تفسيره « الكشاف » الكثير من المسائل البلاغية التى تنم عن علمه الغزير ، وذوقه السليم ، وحسه المرهف . وإليك بعض ماقاله فى بعض القضايا البلاغية :

الفصل والوصل :

يقول فى قوله تعالى : « الم. ذلك الكتاب. لاريب فيه . هدى للمتقين »(١) « والذى هو أرسخ عرقاً فى البلاغة ، أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال : إن قوله الم جملة ، برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و « ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و « لاريب فيه » ثالثة و « هدى للمتقين » رابعة .

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق . وذلك لمجيئها متآخية ، آخذاً بعضها بعنق بعض ، فالثانيه متحدة بالأولى ، معتنقة لها ، وهلم جرا ، إلى الثالثة والرابعة .

بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدى ، وشداً من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص مما للباطل والشبهة .

وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك ؟ فقال : فى حجة تتبختر اتضاحاً وفى

---

(١) البقرة ١ ، ٢ .

شبهة تتضاءل افتضاحا . ثم ، أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقينا ، لايحوم الشك حوله . وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة »(١) .

المجاز العقلى :

يقول فى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم »(٢)

ويجوز أن يستعار الاسناد فى نفسه من غير الله ، لله ، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة .

تفسير هذا : أن الفعل ملابسات شتى ، يلابس الفاعل والمفعول به ، والمصدر والزمان والمكان ، والمسبب له ، فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة(٣) وذلك لمضاهاتها للفاعل فى ملابسة الفعل ، كما يضاهى الرجل الأسد فى جرأته فيستعار له اسمه ، فيقال فى المفعول به عيشة راضية وماء دافق ، وفى عكسه سيل مفعم ، ، وفى المصدر شعر شاعر ، وذيل ذائل ، وفى الزمان نهاره صائم ، وليـــله قائم ، وفى المكان طريق سائر ، ونهر جار ، وأهل مكة يقولون صلى المقام ، وفى المسبب بنى الأمير المدينة .

فالشيطان هو الخاتم فى الحقيقة ، أو الكافر إلا أن الله سبحانه لما كان

---

(١) الكشاف حـ ١ ١٢١ ، ١٢٢ ط الحلبى ١٩٧٢

(٢) البقرة الآية ٧

(٣) يريد الزمخشرى بالاستعارة هنا : استعارة الاسناد عما هو له إلى غير ما هو له .

هو الذى أقدره ، ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى السبب(١) .

التشبيه والأمثال :

يقول فى قوله تعالى : « إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها »(٢) سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء ، وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل :

ليس بموضع الاستنكار والاستغراب من قبل أن التمثيل انما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب ، عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثل له عظيما كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك ، فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إلا أمرا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها ، فيعمل الضارب المثل على حسب تلك القضية .

ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج كيف تمثل له بالضياء والنور وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة .

ولما كانت حال الآلهة التى جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ، لاحال أحقر منها وأقل ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها فى الضعف والوهن . وجعلت أقل من الذباب ، وأخس قدراً ، وضربت لها البعوضة فالذى دونها مثلا لم يستنكر ولم يستبدع ، ولم يقل للمتمثل استحى من تمثيلها بالبعوضة ، لأنه مصيب فى تمثيله ، محق فى قوله ، سائق المثل على قضية مضربه ، محتذ به على مثال مايحتكه ويستدعيه .

---

(١) الكشاف حـ ١ ١٦٠ — ١٦٢

(٢) البقرة ٢٦

ولبيان أن المؤمنين الذين عادتهم الانصاف والعمل على العدل والتسوية، والنظر في الأمور بناظر العقل، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لاتمر الشبهه بساحته والصواب الذي لايرتع الخطأ حوله، وأن الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم وغصبهم على بصائرهم، فلا يتفطنون، ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق. إلا أن حب الرياسة وهو الآلف والعادة لايخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالانكار، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين، وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم: والعجب منهم كيف أنكروا ذلك، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهـــوام.

وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم. وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جراده، وأضعف من فراشه، وآكل من السوس. وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض. وكلفتني مخ البعوض.

ولقد ضربت الأمثال في الانجيل بالأشياء المحقرة، كالزوان والنخالة، وحبة الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود والزنابير، والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به مسكة(١) ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لايبقى له متمسك بدليل، ولا متشبث بأمارة، ولا إقناع، أن يرمى لفرط الحيرة والعجز عن أعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم، والتعويل على المكابرة والمغالطة، إذا لم يجد سوى ذلك معولا(٢).

---

(١) مسكة: بقية.

(٢) الكشاف حـ ١ صـ ٢٦٢ - ٢٦٣

ويقول في قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله . وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين. فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير »(١) .

والمعنى : ومثل نفقة هؤلاء في زكائها عند الله « كمثل جنة » وهي البستان « بربوة » بمكان مرتفع . وخصها لأن الشجر فيهـــا أزكى ، وأحسن ثمراً « أصابها وابل » مطر عظيم القطر . « فآتت أكلها » ثمرتها « ضعفين » مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل « فإن لم يصبها وابل فطل » فطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها .

أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوه ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل ومع أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنه ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ، ويبذل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفاهم « وحسن حالهم عنده(٢) .

وفي قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين »(٣) يقول : شبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية ، وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لايخالطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان . وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح مايقدر وأهوله .

كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لاشر فيه فشبهو به الصورة الصورة الحسنة قال الله تعالى « ماهذا بشراً . إن هذا إلا ملك كريم(٤) . وهذا تشبيه تخييلي(٥) .

---

(١) البقرة الآية ٢٦٥
(٢) الكشاف حـ١ ٣٩٤-٣٩٥
(٣) الصافات ٦٥
(٤) يوسف ٣١
(٥) الكشاف حـ٣ ٣٤٢

ويقول فى قوله تعالى — فى وصف المنافقين : « صم بكم عمى فهـــم لا يرجعون(١) فإن قلت كيف طريقته عند علماء البيان ؟ .

قلت : طريقة قولهم : هم ليوث الشجعان ، وبحور الأسخياء ، إلا أن هـذا فى الصفات ، وذاك فى الأسماء ، وقد جاءت الاستعارة فى الأسماء والصفات والأفعال جميعاً ، تقول : رأيت ليوثاً ولقيت صماً عن الخير ، ودجا الإسلام وأضاء الحق .

فإن قلت : هل يسمى ما فى الآية استعارة ؟ قلت: مختلف فيه . والمحققون على تسميته تشبيها بليغاً لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه لأن يراد به المنقول عنه ، والمنقول إليه لولا دلالة الحال ، أو فحوى الكلام(٢) .

الاستعارة :

يقول فى قوله تعالى: « ولما سكت عن موسى الغضب . وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون »(٣) .

هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء .

ولم يستحسن هذه الكلمة ، ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فما لقراءة معاوية

---

(١) البقرة الآية ١٨ (٢) الكشاف حـ ١ ٢٠٤
(٣) الأعراف ١٥٤

ابن قرة « ولما سكن عن موسى الغضب » لاتجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة(١) .

ويقول فى قوله تعالى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه »(٢) . فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، ومنه قول ابن التيهان فى بيعة العقبة : « يارسول الله إن بيننا وبين القوم حبالا ، ونحن قاطعوها ، فنخشى إن الله عز وجل أعزك ، وأظهرك ، أن ترجع إلى قومك » . وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها ، أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شىء من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحوه قولك شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس(٣) .

---

(١) الكشاف حـ ٢/ ١٢٠
(٢) البقرة الآية ٢٧
(٣) الكشاف حـ١/ ١٦٨

تذوق بعض المعاصرين
للبلاغه القرآنية

مصطفى صادق الرافعي المتوفى سنة ١٩٣٧م

اجتهد الرافعي — رحمه الله — في أن يتذوق جوانب من البلاغة القرآنية لم تكن مألوفة كغيرها ، فهو يجتهد في أن يتذوق مثلا حروف القرآن في كلماتها وحركاتها وأنغامها، وأن يتعرف على هذا الجانب ، من عذوبة الآيات في الوقت الذي ينصرف غيره — غالباً — إلى التعرف على تشبيهاته وأمثاله ومجازاته ، على حد ما بينا .

ونعتقد أن منزع الرافعي محتاج إلى دراسة مستقلة تشرحه وتحلله وتربطه بإشارات تعد أصولا له في تراث السابقين .

ولكننا سوف نكتفي في سياقنا هذا بأن نسمع من فم الرجل نفسه — رحمه الله — درجة إحساسه ، وطبيعة تذوقه لهذه البلاغة القرآنية .

نظم القرآن :

يقول الأستاذ مصطفى الرافعي — رحمه الله :

لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها ، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحـــروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة . فيهيء بعضها لبعض ، ويساند بعضاً ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها في النظم الموسيقي ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان فلا تعذب ولا تساغ ، وربما كانت ، أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحروف والحركة فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان ، واكتنفتها بضروب

من النغم الموسيقى ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شىء وأرقه ، وجاءت متمكنة فى موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة .

من ذلك لفظة « النذر » جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً ، فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوه فى اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضعه الثقل فيه .

ولكنه جاء فى القرآن على العكس ، وانتفى من طبيعته فى قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر(١) » .

فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف، وأجر حركاتها فى حس السمع ، وتأمل مواضع القلقلة ، فى دال « لقد » وفى الطاء من « بطشتنا » وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو « تماروا » مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات، إذا هى جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها ، كما تكون الأحماض فى الأطعمة .

ثم ردد نظرك فى الراء من « تماروا » فإنها ماجاءت إلا مساندة لراء « النذر » حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ، ولا تنبو فيه . ثم أعجب لهذه الغنة التى سبقت الطاء فى نون « أنذرهم » وفى ميمها ، وللغنة الأخرى التى سبقت الذال فى « النذر » .

وما من حرف ، أو حركة فى الآية ، إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً

---

(١) القمر ٣٦

فى موقعه ، والقصد به ، حتى ماتشك أن الجهة واحدة فى نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة .

وقد وردت فى القرآن ألفاظ هى أطول الكلام عدد حروف ومقاطع ، مما يكون مستثقلا بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التى أومأنا إليها قد خرجت فى نظامه مخرجاً سرياً،فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة ، وأعذبها منطقا ، وأخفها تركيبا،إذ تراه قد هيأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف ، وتنوع الحركات . فلم يجرها فى نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها. كقوله : «ليستخلفنهم فى الأرض(١) » .

فهى كلمة واحدة من عشرة أحرف ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها،فإنها بذلك صارت فى النطق كأنها أربع كلمات إذ تنطق على أربع مقاطع.

وقوله «فسيكفيكهم الله» فإنها كلمة من تسعة أحرف،وهى ثلاثة مقاطع، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها .

وفى القرآن لفظة غريبة هى من أغرب مافيه ، وماحسنت فى الكلام قط إلا فى موقعها منه ، وهى كلمة «ضيزى»(٢) من قوله تعالى : « تلك إذاً قسمة ضيزى »(٣) ومع ذلك فإن حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أردت اللغة عليها ماصلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التى هى منها ، وهى سورة النجم مفصلة كلها على الياء ؛ فجاءت الكلمة فاصلة

---

(١) النور ٥٥

(٢) يقال : ضازه حقه ، وضامه : أى منعه ونقصه ، فهى قسمة جائرة والضيز : الجور .

(٣) النجم ٢٢

من الفواصل ثم هى فى معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت فى ذكر الأصنام،وزعمهم فى قسمة الأولاد ، فانهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات(١) .

فقال تعالى : « ألكم الذكر ، وله الأنثى ؟ . تلك إذا قسمة ضيزى » فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها. وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى،والتهكم فى الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ مافى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل،ووصفت حالة المتهكم فى انكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

ثم الكلمات التى يظن أنها زائدة فى القرآن كما يقول النحاة ، فإن فيه من ذلك أحرفا . كقوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم »(٢) . وقوله تعالى: « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا »(٣) .

فان النحاة يقولون إن «ما» فى الآية الأولى ، و «أن» فى الثانية زائدتان ، أى فى الاعراب ، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك فى النظم ويقيس عليه مع أن هذه الزيادة لونا من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته .

فان المراد بالآية الأولى،تصوير لين النبى ﷺ لقومه ، وإن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد فى « ما » وصفاً لفظياً ، يؤكد معنى اللين ويفخمه .

---

(١) أى دفنهن على قيد الحياة ، كما كان من عادتهم .
(٢) آل عمران ١٥٩
(٣) يوسف ٩٦

وفوق ذلك ، فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية ، لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ « رحمة » مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى .

والمراد بالثانية تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ، وبين مجيئه ، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وأن ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب(١) . تؤكدهما ، وتصف الطرب لمقدمه ، واستقراره غُنّة هذه النون في الكلمة الفاصلة ، وهي « أن » في قوله « أن جاء » .

وعلى هذا يجري كل ما ظن أنه في القرآن مزيد ، فإن اعتبار الزيادة فيه وإقرارها بمعناها ، إنما هو نقص يجل القرآن عنه ، وليس يقول بذلك إلا رجل يتعسّف الكلام ويقضي فيه بغير علم ، أو بعلم غيره .

فما في القرآن حرف واحد ، إلا ومعه رأي يسنح في البلاغة ، من جهة نظمه ، أو دلالته ، أو وجه اختياره ، بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف نافر ، أو جهة غير محكمة ، أو شيء مما تنفذ في نقده الصنعة الإنسانية من أي أبواب الكلام إن وسعها منه باب .

ولكنك واجد في الناس من ينقبض ذرعه ، ويقصر به علمه ، ولا يدع مع ذلك أن يُقدم على الأمر ، لا يعرف من أين مطلعه ومأتاه ، فيمْضى القول على ما خُيل ، ويفتي بما احتال ، ولا يمنعه تقصيره من أن يستطيل به ، ولا استطالته من أن يكابر عليها ، ولا مكابرته من اللجاج فيها . فيخطيء

---

(١) قال قبل ذلك عن لسان يعقوب : إني لأجد ريح يوسف ، ولم يكن جاءه البشير فكان يحس به .

صواب القول إن قال ، ثم يخطىء الثانيـــة فى تصويب خطئه إن احتج ، ومافى الخطأ جهة ثالثة إلا أن يُصِرّ على الخطأ .

ومما لايسعه طوق إنسان فى نظم الـكلام البليغ ، مايدل على أن نظم القرآن مادة واحدة فوق الصنعة ، ومن وراء الفـكر ، وكأنها صبت على الجملة صبا ، أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعا ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها كلفظ «اللب» فانها لم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعـــالى : «إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب»(١) . وقوله : «وليذكر أولوا الألباب»(٢) ونحوهما ، ولم تجىء فيه مفردة ، بل جاء فى مكانها «القلب» وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولايفضى إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية . فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبه بين الرخاوة والشدة . لم تحسن اللفظة مهما كانت حركت الاعراب فيها ، نصباً أو رفعاً ، أو جراً ، فاسقطها من نظمه بتة ، على سعة مابين أوله واخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة . وهذا على أن فيـــه لفظة «الجب» وهى فى وزنها ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة فى الجيم المضمومة .

وكذلك لفظة «الكوب» استعملت فيه مجموعة ، ولم يأت بها مفردة ، لأنه لايتهيأ فيها مايجعلها فى النطق من الظهور والرقة ، والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذى هو الجمع .

و«الأرجاء» لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعا ، وترك المفرد ، وهو «الرجاء أى الجانب — لعلة لفظه ، وأنه لايسوغ فى نظمه كما ترى .

---

(١) الزمر ٢١

(٢) إبراهيم ٥٢

وعكس ذلك لفظة « الأرض » فانها لم ترد فيه إلا مفردة ، فاذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة فى كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر الفصاحة، وذهب بها، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل مفكر سجدة طويلة ، وهى فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات . ومن الأرض مثلهن »(١) . ولم يقل «وسبع أرضين » لهذه الجسأة التى تدخل اللفظ ، ويختل بها النظم اختلالا .

وأنت فتأمل — رعاك الله — ذلك الوضع البيانى ، واعتبر مواقع النظم، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة، أو تتيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس ، فيما يتعاطاه من الصناعة . أو يتكلفه من القول ، وإن استقصى فيه الذرائع ، وبالغ فى الأسباب وأحكم ماقبله وماوراءه ؟.

ومن الألفاظ لفظة «الآجر » وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرها نافر متقلقل لايصلح مع هذا المد فى صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، فلما احتاج إليها طرح لفظها مرادفها وهو « القرمد »(٢) . وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما ، ثم أخرج معناها بألطف عبارة ، وأرقها وأعذبها ، وساقها فى بيان مكشوف يفضح الصبح ، وذلك فى قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى . فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا »(٣) .

فانظر هل تجد فى سر الفصاحة،وفى روعة الاعجاز أبرع ، أو أبدع من هذا ؟ وأى عربى فصيح يسمع مثل هـــذا النظم ، وهذا التركيب ،

---

(١) الطلاق ١٢

(٢) وهو فى العامية « الطوب » أى الطين المحرق الذى يبنى به .

(٣) القصص ٣٨

ولا يملكه حسه ولا يسوغه حقيقه نفسه ولا يجن به جنوناً ، ولا يقول آمنت بالله ربا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن معجزة ؟ .

وتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله: «فأوقد لى ياهامان على الطين» ، وانظر موقع هذه القلقلة التى هى فى الدال من قوله «فأوقد» ، وما يتلوها من رقة اللام» ، فإنها فى أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه ، وكأنما تنتزع النفس انتزاعا .

وليس الإعجاز فى اختراع تلك العبارة فحسب ، ولكن ماترى إليه إعجاز آخر ، فإنها تحقر شأنا فرعون ، وتصف ضلاله ، وتسفه رأيه ، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ، ولو نصب الأرض سلما إلا شيئا يصنعه هامان من الطين .

وما يشذ فى القرآن حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ، حتى إنك لو تدبرت الآيات التى لا تقرأ فيها إلا يسرده من الأسماء الجامدة، وهى بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شىء من دلائل الإعجاز ، فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون فى نظمها وجهات سردها ومن تقديم اسم على غيره ، أو تأخيره عنه لنظم حروفه ، ومكانه من النطق فى الجملة ، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التى وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئا فيما ليس فيه شىء .

تأمل قوله تعالى : «وأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات»(١) .

فإنها خمسة أسماء أخفها فى اللفظ «الطوفان والجراد والدم» ، وأثقلها «القمل والضفادع» ، فقدم «الطوفان» لمكان المدين فيها ، حتى يأنس اللسان

---

(١) الأعراف ١٣٣

بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدأ بأخفهما في اللسان، وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه، ثم جيء بلفظة «الدم» آخرا ، وهي أخف الخمسة، وأقلها حروفا ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب .

وأنت فيما قلبت هذه الأسماء الخمسة ، فانك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع ، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولأعنتك أن تجيء منها بنظم فصيح ، ثم لاريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة، وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء ليس يظهر أخفها من أثقلها .

وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ، ولم نستقص في أمثلته لأنه أمر مطرد ، تعرف أن القرآن انما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع وان تستوي هذه الطريقة الا بكل مافيه على جهته ووضعه ، فكل كلمة منه مادامت في موضعها فهي من بعض اعجازه(١) .

---

(١) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٥٧ - ٢٦٧

د. محمد عبد الله دراز المتوفى سنة ١٩٥٨ م

يعد الشيخ محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ من علماء الأزهر الشريف الذين يمثلون سلف هذه الأمة، في نفاذ الفهم ، وسعة الثقافة ، وتعدد أنواع المعارف التي تمثلها . وكونت له عقلية متفردة .

وقد وجه همته، في دراسته القرآنية نحو تأكيد، أن هذا القرآن لم يصدر عن نفس بشرية .

ودراساته في هذا الجانب تستحق بحثاً مستقلا يبين منهج الشيخ ـ رحمه الله ـ ويحلل فكرة الذي نعده من أحكم وأقوى وأخصب ما كتب في هذا الباب ، في هذا العصر .

فضلا عن أنه أقرب إلى اقناع العقل المعاصر ، وسوف نعرض صوراً من جهده الطيب راجين أن ينتفع به .

سر التسمية بالقرآن والكتاب :

يقول الشيخ ـ رحمه الله ـ « القرآن في الأصل مصدر على وزن فعلان بالضم كالغفران والشكران ، والتكلان . تقول: قرأته قرءا ، وقراءة وقرآنا بمعنى وواحد ، أي تلوته تلاوة .

وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه »(١) . أي قراءته .

ثم صار علماً شخصياً لذلك الكتاب الكريم، وهذا هو الاستعمال الأغلب

---

(١) القيامه الآية ١٧ ومابعدها .

ومنه قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »(١) .

وروعى فى تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن ، كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام . فكلتا التسميتين من تسمية شىء بالمعنى الواقع عليه .

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد . أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ماهو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها، بقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز ، إنجاز الوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول : «أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(٢) . ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى : « والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله(٣) أى بما طلب إليهم حفظه .

والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا على التأبيد ، وأن هذا القرآن جىء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائد عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ، ولم يكن شىء منها ليسد مسده . فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه . وهذا الحكيم العليم(٤).

---

(١) الإسراء ٩ (٢) الحجر ٩ (٣) المائدة ٤٤

(٤) انظر : النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ١٢ : ١٤

طرف من سيرة الرسول بإزاء القرآن .

وكأني بك ههنا تحب أن أقدم لك من سيرته ﷺ المطهرة مثلا واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصدده ، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه فإليك طرفا من ذلك .

لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا ، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ، ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المنافقون بحديث الافك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ، وأبطأ الوحي ، وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس « إني لا أعلم عنها إلا خيراً » ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء لم يزد على أن قال لها آخر الأمر « يا عائشة ، أما إنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله » .

هذا كلامه بوحي ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ، ولا يقول ما ليس له به علم . على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها (١)

---

(١) قال تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم . والذى =

فاذا كان يعنه — لو أن أمر القرآن إليه — أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمى بها عرضه ، ويذب بها عن عرينه . وينسبها إلى الوحى السماوى لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين(١) .

وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه ، فيخطئه فى الرأى يراه . . ويأذن له فى الشىء لا يميل إليه ، فإذا تلبث فيه يسيرا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد ، والعتاب القاسى ، والنقد المر ، حتى فى أقل الأشياء خطرا « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضات أزواجك(٢) . « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »(٣) « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا . وتعلم الكاذبين »(٤) . « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم »(٥) « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . تريدون عرض الدنيا . والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »(٦) . « أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى »(٧) .

= تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً . وقالوا هذا إفك مبين » النور ١١ ، ١٢

(١) الحاقة ٤٤ وما بعدها .

(٢) التحريم ١ (٣) الأحزاب ٣٧

(٤) التوبة ٤٣ (٥) التوبة ١١٣

(٦) الأنفال ٦٧ وما بعدها (٧) عبس ٥ وما بعدها .

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبرة عن ندمه ، ووخز ضميره حتى بدا له خلاف ما فرط من رأيه . أكان يعلنها عن نفسه بها التهويل والتشنيع ؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه ؟ بلى، إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان ، ولو كان كاتما شيئا لكتم أمثال هذه الآيات . ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ، « وما هو على الغيب بضنين »(١) .

وتأمل آية الأنفال المذكورة ، تجد فيها ظاهرة عجيبة ، فإنها لم تنزل إلا بعد اطلاق أسارى بدر ، وقبول الفداء منهم ، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها ، وتطييب النفوس بها ، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها .

فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام — لو كان عن النفس مصدره — يمكن أن يصدر عنها آخره ، ولم تمض بينهما فترة تفصل بين زجرة الغضب والندم ، وبين ابتسامة الرضا والإستحسان؟ .

كلا ، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابا عن الأول ، ماحيا له ، ولرجع آخر الفكر وفقا لما جرى به العمل . فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله ، على ما فيه من تقريع علني بغير حق وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالا طيبة ؟ .

---

(١) التكوير ٢٤

إن الذى يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ههنا أيته شخصيتين منفصلتين . وأن هذا صوت سيد يقول لعبده . لقد أسأت ولكنى عفوت عنك وأذنت لك .

وأنت لو نظرت فى هذه الذنوب التى وقع العتاب عليها ، لوجدتها تنحصر فى شىء واحد وهو أنه عليه السلام كان إذا ترجح بين أمرين ، ولم يجد فيهما إثما اختار أقربهما إلى رحمة أهله ، وهداية قومه وتأليف خصمه وأبعدهما عن الغلظة والجفاء ، وعن اثارة الشبه فى دين الله ، ولم يكن بين يديه نص يخالفه كتمانا ، أو جاوزه خطأ ونسيانا ، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه فى النظر ، ورأى نفسه مخيرا فتخير . هبه مجتهدا أخطأ بإختيار خلاف الأفضل . أليس معذورا ومأجورا ؟ على أن الذى أختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية ، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح فى ميزان الحكمة الالهية هل ترى فى ذلك ذنبا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية ، وسنة العروج بالحبيب فى معارج التعليم والتأديب ؟

توفى عبد الله بن أبى كبير المنافقين . فكفنه النبى فى ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلى عليه ، فقال عمر رضى الله عنه : أتصلى عليه وقد نهاك ربك فقال صلى الله عليه وسلم « إنما خيرنى ربى فقال « استغفر لهم ، أولا تستغفر لهم . إن تستغفر لهم سبعين مرة » وسأزيده على السبعين ، وصلى عليه .

فأنزل الله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا . ولا تقم على قبره » (١) فترك الصلاة عليهم .

---

(١) التوبة الآية ٨٠ ، ٨٤ .

اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين ، وأنظر ماذا ترى ؟

أنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع ، وقد اتخذ من القرآن دستورا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية ، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم ، وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييراله إلى بين طريقين فسرعان ماسلك أقربهما إلى الكرم الرحمة ، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ماجاءه النص الصريح بالمنع .

وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن فى هذه المواطن أو غيرها تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة وتجلى لك فى مقابل ذلك من جانب القرآن . معنى القوة التى لا تتحكم فيها البواعث والأغراض بل تصدع بالبيان فرقانا بين الحق والباطل، وميزانا للخبيث والطيب ، أحب الناس أم كرهوا رضوا أم سخطوا . آمنوا أم كفروا ، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ، ولا تنقصها معصية العاصيين ، فترى بين المقامين مابينهما ، وشتان بين سيد ومسود ، وعابد ومعبود (١) .

البيان والاجمال :

وهذه عجيبة أخرى تجدها فى القرآن ، ولاتجدها فيما سواه . ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل ، وإذا أجملوها ، ذهبوا إلى الابهام أو الإلباس ، أو إلى اللغو الذى لايفيد ، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد .

ونقرأ القطعة من القرآن فتجد فى ألفاظها من الشفوف ، والملاسة والأحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ، مايتسابق به مغزاها إلى

---

(١) انظر النبأ العظيم ٢٣ - ٢٨ .

نفسك دون كد خاطر ولا استعادة حديث . كأنك لا تسمع كلاما ولغات بل ترى صوراً ، وحقائق ماثلة . وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ووقفت على معناه محدودا .

هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذى سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك . . حتى ترى للجملة الواحدة ، أو الكلمة الواحدة وجوها عدة كلها صحيح أو محتمل للصحة (١) . كأنما

---

(١) هذا مثل صغير : اقرأ قوله تعالى : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » سورة البقرة الآية ٢١٢ . وانظر هل ترى كلاما أبين من هذا فى عقول الناس؟ ، ثم انظر كم فى هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لو قلت فى معناها إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله : لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ، ويقدره على هؤلاء ، أصبت .

ولو قلت إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الانفاق خوف النفاد . أصبت .

ولو قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت .

ولو قلت إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله أصبت .

ولو قلت يرزقه رزقا كثيرا لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت .

فعلى الأول يكون الكلام تقرير القاعدة الأرزاق فى الدنيا ، وأن نظامها لا يجرى على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقا لمشيئته وحكمته سبحانه فى الابتلاء وفى ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين . ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثانى يكون تنبيها على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه ، وعلى الثالث يكون تلويحا للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر

هى فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وماذا تدع ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منها ما يسر له ، بل ترى محيطا مترامى الأطراف لا تحده عقول والأفراد ، ولا الأجيال .

وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآنى ومتانة نظمه ، وعجيب تصرفه حتى يؤدى لك المعنى الوافر الثرى ، فى اللفظ القاصد النقى .

ولا تحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التى وقع اختيار الناس عليها ، وتواصفوا الاعجاب بها ، كقوله تعالى : « وقيل ياأرض ابلعى ماءك — الآية » (١) وقوله « ولكم فى القصاص حياة » (٢) وأشباههما .

بل تريد أن نجيئك بمثال من عرض القرآن فى معنى لايأبه له الناس ، ولايقع اختيارهم على مثله عادة ، ليكون دليلا على ماوراءه .

يقول الله تعالى فى ذكر حجاج اليهود : « وإذا قيل لهم : امنوا بما أنزل

= حتى يبدل عسرهم يسرا ، وفقرهم غنى من حيث لا يظنون .

وعلى الرابع والخامس يكون وعدا للصالحين أما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافا كثيرة لايحصرها العد . ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء فى آية رأى من ذلك العجب العاجب هامش النبأ العظيم ١١٧ - ١١٨ .

(١) هود ١١ :

(٢) البقرة الآية ١٧٩ .

الله » قالوا « نؤمن بما أنزل علينا » ويكفرون بما وراءه . وهو الحق مصدقا لما معهم .

قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟(١) .

هذه قطعة من فصل من قصة بنى اسرائيل . والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلى .

١ — مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الايمان بالقرآن .

٢ — اجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين :

٣ — الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه :

وأقسم لو أن محاميا بليغا وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى التى تختلج فى نفس الداعى والمدعو لما وسعه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من اشارات ، واحتراسات ، وآداب ، وأخلاق .

قال الناصح لليهود . آمنوا بالقرآن ، كما آمنتم بالتوراة ألستم قد آمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذى جاء به محمد أنزله الله فآمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير ، فى هذا اللفظ الوجيز « آمنوا بما أنزل الله » . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القران ، إلى كناية تجمل دعاءهم إلى الايمان به دعاء إلى الشىء بحجته . وبذلك أخرج الدليل ، والدعوى فى لفظ واحد .

---

(١) البقرة الآية ٩١ وما بعدها .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله « على محمد » مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

أتدرى لم ذلك ؟

لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدا ، وفى نظر الحكمة الارشادية مفسدا

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لامدخل لها فى الالزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك ، وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل

وأما الثانى فلأن إلقاء الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ماقصده الداعى من التأليف والاصلاح .

ذلك إلى مافى هذا الحذف من الاشاره إلى طابع الاسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع مافرقه الناس من الأديان، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء ، بما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لانفرق بين شىء من كتبه ، كما لانفرق بين أحد من رسله .

كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للايمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب ، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج .

هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله « نؤمن بما أنزل علينا » وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد فى إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الانزال وهو لفظ الجلالة ؛ لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها .

من البين أن أقتصارهم على الايمان بما أنزل عليهم يومىء إلى كفرانهم

بما أنزل على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثانى . ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر . فأراد القرآن أن يبرزه . انظر كيف أبرزه ؟ أنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبا لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم : فقال . « ويكفرون بما وراءه » أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ « ما وراءه » فإن لهذه الكلمة وجها تعم به غير القرآن ، ووجها تخص به هذا العموم : ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا بالانجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة أى جاء بعدها . ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلا . وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع . وهذا هو غاية الانصاف وتحرى الصدق فى الاتهام

جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه فتراه لا يبدأ بمحاولتهم فى دعوى أيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتا كأنها مسلمة ليبنى عليها وجوب الايمان بغيره من الكتب فيقول : كيف يكون ايمانهم بكتاب باعثا على الكفر بما هو حق مثله ؟

لا ، بل « هو الحق » كله(١) وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الايمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر ؟

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد ، وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق ، فقد يكون الشيء حقا وغيره حقا

---

(١) فإن ما سواه إن خالفه كان شاهداً على نفسه بالبطلان ، وإن كان صحيحا أو محتملا للصحة . فهو إذا معيار الحق وميزانه .

فلا يتكاذبان ، ولكنهما فى شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضها لبعض . أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و « مصدقاً » لما بين يديه من الكتب ، فأنى يكذب به من يؤمن بها ؟ !

ثم يستمر فى اكمال هذا الوجه قائلا : ولو أن التحريف ، أو الضياع الذى نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر فى تكذيبهم بالقرآن إذ يحق لهم أن يقولوا « إن البقية المحفوظة من هذه الكتب فى عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق ، فليس الايمان بها موجبا للإيمان به » .

بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ، ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين لكان لهم مثل ذلك العذر . أما وهذا القرآن مصدقاً لما هو قائم من الكتاب فى زمنهم وبأيديهم ، ويدرسونه بينهم ، فبما يعتذرون ، وأنى يذهبون ؟ هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة « لما معهم » .

فانظر إلى الأحكام فى صنعة البيان : إنما هى كلمة رفعت (١) وأخرى وضعت (٢) . فى مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الهرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت فى خطوة واحدة وفى غير ماجلبة ، ولا طنطنة .

(١ ، ٢) ذلك أن مقتضى السياق أن يقال : « مصدقاً لما أنزل عليهم » ولكنه لأمر ماضى عن كتابهم ذلك اللقب القديم . وألبسه هذا العنوان الجديد ، ولو بدلت أحد اللقبين مكان الآخر لما صلح أحدهما فى موضع صاحبه ، بل لو جئت بلقب آخر فقلت « مصداقاً لما هو باق فى زمنهم » أو « مصدقاً لما عندهم » لما تم الالزام وهذا من عجيب شأن القرآن لا تبديل لكلماته .

ولما قضى وطر النفس من هـــذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه ، والافتخار به ، وهو دعواهم الايمان بما أنزل عليهم فأوسعهم إكذابا وتفنيدا ، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم ، قد أشربوه فى قلوبهم ، ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضا مزمنا . وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المقطعة التى لاسبيل لانكارها ؛ فى جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه وتمردهم على أوامره « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟

١ — تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه : وهل الذى يكذب مـــن يصدقك يبقى مصداقا لك ؟! .

غير أن هذا المعنى أنما أخذ استنباطا من أقوالهم ، والزاما لهم بمآل مذهبهم ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم . فكانت هذه هى مهمة الرد الجديد

وهكذا كانت كلمة « مصدقا لما معهم » مغلاقا لما قبلها مفتاحا لما بعدها ، وكانت آخر درجة فى سلم الغرض الأول : هى أول درجة فى سلم الغرض الثانى .

فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام ، وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان تدريجا له على مدارجها ، وتنزيلا له على قدر حاجتها وفى وقت تلك الحاجة فما هو إن آنس تطلع النفس واستشرافها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ووقفها عليها تامة كاملة .

٢ — وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي ، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم . فلم يقل : « فلم قتل آباؤكم أنبياء الله . واتخذوا العجل وقالوا سمعنا وعصينا » ؟ ؛ إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة في بادىء الرأي مثلها كمثل محاجة الذئب للحمل في الأسطورة المشهورة(١) فكان يحق لهم في جوابها أن يقولوا : « ومالنا وللآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ولو زاد مثلا : وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم » لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى — بوقفهم بادىء ذي بدء في موقف الاتهام — اسراعا بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيها في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض وأنهم سواسية في الجرم ، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم ، لأنهم لا ينفكون على الاستنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى على أفاعيلهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

٣ — وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحا بإخراج الجريمة الأولى، وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويرا لها بصورة الأمر الواقع الآن كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية .

٤ — ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح

---

(١) التي تزعم أن ذئبا عدا على حمل صغير بحجة أن أخاه ، أو أباه كان قد عكر عليه ماء القناة وهو يشرب منذ عام مضى ، وهي تمثل عدوان القوى على الضعيف استنادا لأوهن الأسباب .

بابا من الايحاش لقلب النبي العربي الكريم ، وبابا من الأطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله « من قبل » فقطع بهـــذه الكلمة أطماعهم ، وثبت بها قلب حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس . ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التجوز المذكور آنفا في الإسناد ، وفي الصيغة .

٥ — وانظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة : « من قبل » فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ — وانظر إلى الآداب العالية ، في عرض الجريمة الثانية ، وهي جريمة الشرك ، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها ، وأشد نكرا في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل إلها ، بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعا للتصريح به في صحبة الأول ، وبيانا لما بينهما من مفارقة .. وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل ، فرب صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى في الخصم .

٧ — ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الاجمال على التفصيل ، اعراضا عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان في الحال . فقد قال إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق أفي أصول الدين فحسب ، أم في الأصول والفروع جميعا ، أم في الأصول وبعض الفروع ، وإلى أي حد؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم .

وماذا يعني الداعي إلى أصل الايمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع !

وقال انهم يقتلون أنبياء الله . فمن هم أولئك الأنبيـــاء ؟ ليبحث علماء التاريخ !

وقال إن موسى جاءهم بالبينات فكم هى ؟ وما هى ؟

وقال : إنه أخذنا عليهم ميثاقهم . فعلى أى شىء كان الميثاق ؟

إن حكمة البيان القرآنى لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل فى مثل هذا الموضع . ولو ذكرت ههنا لكان مثلها مثل من يسأل لم ضربت عبدك؟ فيقول : لأنه ضرب غلاما اسمه كذا ، واسم أبيه كذا ، وحليته كذا ، وولد فى عام كذا ، ألا ترى أن هذا زائد وكثير .

٨ — ولو ذهبنا نتتبع سائر ما فى هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه الذى قصدنا إليه .

فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه فى كلام الناس . ذلك أن المرء إذا أهمه أمر من الدفاع أو الاقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسحة الانفعال بأغراضه ، وكان تأثيره بها فى نفسك على قدر تأثره هو ، طبعا أو تطبعا ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة فى ظفره ، ومن الامتعاض فى اخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفا ، لو أعرض الناس عن هداه ، إذا كان مؤمنا بقضيته ، مخلصا فى دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، تؤثر ولا تتأثر تصف لك الحقائق خيرها وشرها فى عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة تراه جليا من خلال هذا الأسلوب المقتصد فى حجاجة أخذا وردا ، المقتصد فى وصفه مدحا وقدحا .

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد فى وصفه على هذه الكلمة : « هو الحق » نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تشبعك أيها الانسان تلك الكلمة إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق التى تقتنع بها وتحب أن تقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجل على بنى اسرائيل أخش الفحش ، وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة ، فتراه لا يزيد على أن يقول فى الأولى : إن هذا « ظلم » . وفى الثانية : « بئسما » صنعتم . أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات ؟

نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما ، ولكن أين الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام ؟ بل أين الاقذاع والتشنيع ، وأين الاسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس ، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم ؟

لله ما أعف هذه الخصومة ، وما أعز هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين ، وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر(١) .

---

(١) انظر النبأ العظيم ١١٧ — ١٢٧

تذوق بعض المتقدمين
للبلاغة النبوية

الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ

وجد الجاحظ فى البلاغة النبوية . مايبهر العقول ، ويشرح الصدور بما تتجمل به من الأفكار القويةو العبارات البليغة ،فيها المعنى الرشيد ،واللفظ العذب الجميل . فهى فريدة فى نوعها ، وحيدة فى نسجها .

يقول الجاحظ : « وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربى ، ولم يشاركه فيه عجمى ، ولم يدع لأحد ، ولا ادعاه أحد ، مما صار مستعملا ومثلا سائرا

فمن ذلك قوله « مات حتف أنفه». ومن ذلك قوله «الآن حمى الوطيس»

ومن ذلك قوله لأبى سفيان بن حرب : « كل الصيد فى جوف الفراء»(١) ومن ذلك قوله « هدنة على دخن ،وجماعةعلى أقذاء » ومن ذلك قوله لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » .

ألاترى أن الحارث بن خدان حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب قال : ياأيها الناس ، اتقوا الفتنه ، فإنها تقبل بشبهة ، وتدبر ببيان وأن المؤمن لايلسع من جحر مرتين ، فضرب بكلام رسول الله ﷺ المثل .

وقال ابن الأشعث لأصحابه ، وهو على المنبر : قد علمنا إن كنا نعلم ،

---

(١) استأذن أبو سفيان على الرسول عليه الصلاة والسلام فحجبه ، ثم أذن له ، فقال له . ماكدت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجهامتين ، فقال : ياأبا سفيان أنت كما قال القائل « كل الصيد فى جوف الفرا » وأراد عليه السلام بما قاله لأبى سفيان تألفه على الاسلام ، فقال أنت فى الناس كحمار الوحش فى الصيد .

وفهمنا إن كنا نفهم إن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين ، وقد والله اسعت بكم من جحر ثلاث مرات ، وأنا استغفر الله من كل ماخالف الايمان ، وأعتصم به من كل ماقرب من الكفر .

فنون من الكلام :

يقول الجاحظ مشيدا ببلاغة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه «وأنا أذكر بعد هذا فنا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يامحمد : «وما أنا من المتكلفين»(١)

فكيف ، وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ، ويسر التوفيق ، وهذ الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام ، وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زالت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم(٢) . ولا أفحمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم ، الا بمعرفة الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق . ولا يطلب الفلج(٣) إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز . ولا يبطىء ، ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر

---

(١) ص ٨٦
(٢) أى لم يطقه ، ولم يقو على معارضته
(٣) الفلج : الظفر والغلب

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا . ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبـين فى فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم .

ولم أرهم يذمون المتكلف للبلاغة فقط ، بل كذلك يرون المتظرف المتكلف للغناء ، ولا يضعون اسم المتكلف إلا فى المواضع التى يذمونها قال قيس بن خطيم(١)

فما المال والأخلاق إلا معارة ... فما اسطعت من معروفها فتزود

وإنى لأغنى الناس عن المتكلف ... يرى الناس ضلالا وليس بمهتد

وقال ابن قميئة(٢)

وحمال أثقال إذا هى أعرضت ... عن الأصل لا يسطيعها المتكلف

وقال محمد بن سلام ، قال يونس بن حبيب : ماجاءنا عن أحد من روائع الكلام ماجاءنا عن رسول الله ﷺ .

من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم :

فمن كلام رسول الله ﷺ حين ذكر الأنصار فقال . « أما والله ماعلمتكم إلا لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع

---

(١) هو قيس بن الخطيم الأوسى : شاعر جاهلى من فحول شعراء المدينة .

(٢) هو عمرو بن قميئة بن سعد الضبعى البكرى . شاعر فحل مقدم من قدماء الشعراء الجاهليين

وقال : « الناس كلهم سواء كأسنان المشط » .

وقال : « المرء كثير بأخيه » و « لاخير فى صحبة من لايرى لك مايرى لنفسه » .

وقال الشاعر :

سواء كأسنان الحمار فلا ترى   لذى شيبة منهم على ناشىء فضلا

وقال آخر :

شبابهم وشيبهم سواء   فهم فى اللؤم أسنان الحمار

وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته ، وتشبيه النبى ﷺ وحقيقته علمت فضل مابين الكلامين .

وقال رسول الله ﷺ « المسلمين تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » .

فتفهم رحمك الله قلة حروفه ، وكثرة معانيه .

وقال صلى الله عليه وسلم « اليد العليا خير من اليد السفلى » و « ابدأ بمن تعول » .

وذكر الخيل فقال : بطونها كنز ، وظهورها حرز .

وقال : ماقل وكفى ، خير مما كثر وألهى .

وقال : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الخير فى السيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف .

وقال : لاتزال أمتى صالحا أمرها ، مالم تر الأمانة مغنما والصدقة مغرما

وقال « لن يهلك امرؤ بعد الشورة ، وقال « المستشار مؤتمن »

وقال : « المستشار بالخيار إن شاء قال « وإن شاء أمسك »

وقال . « رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم

وقال : « لاتجلسوا على ظهور الطريق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردوا السلام واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف »

وقال إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وان تعتصموا بحبله جميعا ، ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال واضاعة المال .

وقال : يقول ابن آدم : مالى مالى ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو وهبت فأمضيت »

وقال : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لسأل إليهما ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »

وقال : إن أحبكم إلى ، وأقربكم منى مجالس يوم القيامة .أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون . وأن أبغضكم إلى ، وابعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون »

وقال رجل : يارسول الله ، أوصنى بشيء ينفعنى الله به ؟ قال أكثر ذكر الموت يسلك عن الدنيا ، وعليك بالشكر ،فإن الشكر يزيد فى النعمة وأكثر الدعاء فإنك لاتدرى متى يستجاب لك »

وقال « ايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، وإياك والبغى ، فإن الله قد

قضى أنه من بغى عليه لينصرنه الله ، و « إياك والمكر ، فإن الله قد قضى أن لايحيق المكر السيء إلا بأهله »

وقيل : يارسول الله ، أى العمل أفضل؟ فقال : اجتناب المحارم ولايزال فوك رطبا من ذكر الله »

وقيل له : أى الأصحاب أفضل ؟ فقال : « الذى إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك »

وقيل : أى الناس شر ؟ قال : « العلماء إذا فسدوا »

وقال . دب إليكم داء الأمم من قبلكم . الحسد والبغضاء والبغضاء هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر . والذى نفس محمد بيده لاتؤمنون حتى تحابوا أو لا انبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »

« وقال تهادوا تحابوا »

وعن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ . أوصانى ربى بتسع أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، وبالعدل فى الرضا والغضب وبالقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « لايحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان » .

ومن حديث عبد الله بن المبارك قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن قوما ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموا فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ماتصنع ؟ فقال : هو مكانى أصنع فيه ماشئت ، فإن أخذوا على يديه نجا ، ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالوالى يجلد فوق ما أمر الله

به ، فيقول له الرب : عبدى ، لم جلدت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : ربى ، غضبت لغضبك .

فيقول: أ كان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبدى لم قصرت عما أمرتك به ؟ فيقول : ربى ، رحمته ، فيقول: أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتى ؟ قال فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لا أعرفه ، إلا أنه صيرهما إلى النار ».

وقال : « من رضى رقيقه فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، ولا تعذبوا عباد الله » .

وقال فى آخر ما أوصى به : « اتقوا الله فى الضعيفين »(١) .

وعن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء »

وعن الحسن أن النبي ﷺ قال : اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عندكم عوان(٢) وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »

وعن محمد بن ابراهيم التيمى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب الجواد من خلقه »

وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت : قال النبي ﷺ « من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب(٣) كان حقا على الله أن يحرم لحمه على النار »

وعن ثمامة بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : قيدوا العلم بالكتاب »

وقال : فضل جاهك تعود به على اخيك الذى لا جاه له ، صدقة منك

---

(١) الضعيفان : المرأة والعبد .

(٢) العانى : الأسير والجمع عناة ، والأسيرة عانية والجمع عوان

(٣) ذب عن لحمه بظهر الغيب : يعنى دفع عنه عدوان المعتدى عليه بلسانه فى غيبته

عليه . وفضل لسانك تعبر به عن أخيك الذى لالسان له صدقة منك عليه ، وفضل قوتك تعود بها على أخيك الذى لاقوة له صدقة منك عليه وفضل علمك تعود به على أخيك الذى لاعلم له صدقة منك عليه ، وإماطتك الأذى عن الطريق ، صدقة منك على أهله ،

وإنما مدار الأمر والغاية التى يجرى إليها : الفهم ثم الافهام ، والطلب ثم التثبت »(١)

---

(١) انظر : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٥ — ٣٤

الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

ويعتبر كتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضى فريدا فى المكتبة العربية ، حيث تداول البيان النبوى ، تناولا بلاغيا ، امتزجت فيه الفكرة العلمية بالروح الأدبية .

كما يعكس الصورة المشرقة لسعة أفق الشريف ، وغزارة علمه ، وثاقب فكره ووفرة ثقافته .

وقد جمع فيه الشريف واحدا وستين وثلثمائة حديث ، من بديع البيان وبليغ القول .

ويحرص الشريف فى كتابه « المجازات النبوية » على الاشادة بالبلاغة النبوية لأن صاحبها قد أوتى الحكمة وجوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، وإليك بعض ما عالجه من قضايا بلاغة فى البلاغة النبوية .

التشبيه :

يقول الشريف فى قوله عليه الصلاة والسلام : « العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيمه ، واللين أخوه ، والرفق والده والصبر أمير جنوده » .

المراد بقوله عليه الصلاة والسلام « العلم خليل المؤمن » أنه يأنس به من الوحشة ، ويسكن إليه فى الوحدة ، كما يأنس الخليل بخليله ، ويسكن الحميم إلى حميمه .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والحلم وزيره » أى يقوى به على الأمور ، ويوازره على كظم المكروه ،

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : « والعقل دليله » أنه بالعقل يهتدى في ظلم المشكلات . وينجو من مضايق الغمرات ، فهو كالدليل الذى يرشد فى المضال ، ويجنب عن المزال .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام « واللين أخوه » أى اللين يفيده مؤاخاة الأخوان ومخالصتهم ، ويحفظ عليه صفاءهم ومودتهم ، فجعله عليه الصلاة والسلام أخاه من حيث كان سببا لاجتلاب الاخوان إليه ، وحفظ المودات عليه .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام : والرفق والده ، كالمراد بقوله : « واللين أخوه » لأن الرفق يقبل إليه بالقلوب ، ويعطف عليه كوامن الصدور فيصير كل واحد فى الحنو عليه ، والميل إليه كالوالد الرؤوف ، والجد العطوف .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام « والصبر أمير جنوده » أن الصبر ملاك أمره وشداد أزره ، وبه تبلغ الآراب ، وتدرك المحاب ، فهو كأمير جنده الذى يقوى به على أعدائه ، ويصل به إلى أغراضه وطلباته .

وقد يجوز أن يكون المراد أن الصبر رأس خلاله ، ورئيس خصاله فهو متقدم عليها كالأمير لسائرها ، كما أن الأمير متقدم على رعيته ، وله شأن على من فى طبقته (١) .

ويقول فى قوله عليه الصلاة والسلام « الخمر أم الخبائث ، ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يوما ، فان مات وهى فى بطنه مات ميتة جاهلية » :

---

(١) المجازات النبوية ١٩٥

سماها عليه الصلاة والسلام « أم الخبائث » على تغليظ النهي عن شربها ، وتعظيم قدر العقاب عليها ، فكأنها جماع الخبائث المردية ، ومعظم الذنوب الموبقة ، كما أن الأم جامعة لأولادها ، ومتقدمة عليهم بميلادها ، والفائدة في تقديمها على غيرها من المعاصي أن الأغلب في شربها أن يكون طريقا إلى ارتكاب الكبائر ، وجر الجرائر ، فان السكران قد يحمله سكره على القذف والافتراء وإراقة الدماء ، واستحلال الفروج والأموال ، وغير ذلك من مهالك الذنوب ، ومعاظم العيوب ، وكل هذا فالسكر من أقوى أسبابه ، وأقرب أبوابه(١) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام « المؤمن مرآة أخيه » يقـــول : المراد أن المؤمن الناصح لأخيه المؤمن يبصره مواقع رشده . ويطلعه على خفايا عيبه ، فيكون كالمرآة له ينظر فيها محاسنه فيستحسنها ، ويزداد منها ، ويرى مساويه فيستقبحها ، وينصرف عنها(٢) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام « القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض » .

المراد تشبيه القلوب بالأوعية ، وهي الظروف والعياب(٣) التي تحرز فيها الأمتعة وغيرها من الأشياء المحفوظة ، وهي كالآنية لايداع الأشياء المائعة ، إلا أن الأوعيـــة تختص بالجامدات ، كما أن الآنية تختص بالمائعات ، فالقلب من حيث حفظ ووعى ، كالوعاء من حيث جمع وأوعى(٤) .

---

(١) المجازات النبوية ٢٤٣

(٢) المجازات النبوية ٧٩

(٣) العياب جمع عيبة : الوعاء يكون فيه المتاع .

(٤) المجازات النبوية ٣٩١

وفى قوله عليه الصلاة والسلام — وقد مر على قوم وقوف على ظهور دوابهم ورواحلهم يتنازعون الأحاديث — « لاتتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق ، فرب مركوب خير من راكبه » يقول الشريف « شبه عليه الصلاه والسلام الدواب والرواحل فى حالة اطالة الوقوف على ظهورها ، بالكراسى التى يجلس عليها ، لأنها تثبت فى مواضعها ولاتزول إلا بمزيل لها ، فنهى عليه الصلاة والسلام أن يجعل الحيوان المتصرف بمنزلة الجماد الثابت والشىء النابت(١) .

ويقول فى قوله عليه الصلاة والسلام ، فى وصف الفرس الذى جاء سابقا « إنه لبحر » .

ربما طعن بعض الجهال بمناديح كلام العرب فى هذا القول ، بأن يقول : كيف شبه عليه الصلاة والصلاة والسلام سرعة جرى الفرس بالبحر ، والبحر راكد لايجرى ، وقائم لايسرى ؟ .

فجوابه أن يقال : إنما شبه عليه الصلاة والسلام اتساعه فى الجرى ، باتساع ماء البحر ، ألا تراهم يقولون ، إنه لواسع الحضر(٢) ووساع الخطو(٣) ، يريدون هذا المعنى ، والبحر فى كلام العرب الشىء الواسع ، ومن هنا سموا البلده المتسعة الأقطار بحرا .

---

(١) أى نبت فى الأرض ، ونباته فى الأرض يدل على ثبوته فيها لأن جذوره مغروس فيها - المجازات النبوية ٤٣٧ .

(٢) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه ، أى واسع مسافة ارتفاعه عن الأرض ، أثناء عدوه وجريه .

(٣) أى واسع الخطو ، فوساع بمعنى واسع .

وقد يجوز أن يكون المراد بتشبيهه بالبحر أن جريه غزير لاينفد ، كما أن ماء البحر كثير لاينضب ، ويقال للفرس الكثير الجرى : بحر وفيض وسكب ، وعلى هذا قول الشاعر :

وفى البحور تغرق البحور

قيل أراد الخيل السابقة التى تسبقها خيل أسبق منها ، فقد بان أن التشبيه واقع موقعه ، وأن الطاعن فيه لم يفهم غرضه(١) .

وفى قوله عليه الصلاة والسلام : «كل أمر ذى بال لايبدأ فيه بحمد الله أقطع يقول : إنما شبه عليه الصلاة والسلام الأمر الذى تهم الإفاضة فيه ، وتمس الحاجة إلى الكلام عليه ، إذا لم يتطر حمد الله سبحانه وتعالى ، بالأقطع اليد من حيث كان قالصا(٢) عن السبوغ ، وناقصا عن البلوغ .

ومما يقوى ذلك مارواه أبوهريرة أيضا قال : قال عليه الصلاة والسلام «الخطبة التى ليس فيها شهادة كاليد الجذماء(٣) فأقام عليه الصلاة والسلام نقصان الخطبة مقام نقصان الخلقة(٤) .

---

(١) المجازات النبوية ١٨٦ .
(٢) قالصا : قاصرا ، والسبوغ : التمام والشمول .
(٣) اليد الجذماء : التى ذهبت أناملها .
(٤) المجازات النبوية ٢٤٤ .

الاستعارة :

فى قوله عليه الصلاة والسلام لحادى مطيه : « ياأنجشة رفقاً بالقوارير » .

« أنجشه : مولى النبى صلى الله عليه وسلم وحادى مطيه : أى الذى يغنى للإبل أثناء سيرها حتى يسهل عليها السير ، ويخف عنها التعب . والقوارير : جمع قارورة وهى ماقر فيه الشراب ونحوه سواء كان من الزجاج ، أو من غيره ، وقيل مخصوص بالزجاج ويجب حمله هنا على ماكان من الزجاج لأنه الذى يشينه أدنى خدش ، ويغشيه أرق مس » .

يقول الشريف : وهذه استعارة عجيبة ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، شبه النساء فى ضعف النحائز (١) ، ووهن الغرائز(٢) بالقوارير الرقيقه ، التى يوهنها الخفيف ، ويصدعها اللطيف ؛ فنهى عن أن يسمعهن ذلك الحادى ، مايحرك مواضع الصبوة وينقض معاقد العفة(٣) .

ويقول فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لاتقوم الساعة ، حتى يظهر الفحش والبخل ، ويخون الأمين ، ويؤتمن الخائن ، وتهلك الوعول ، وتظهر التحوت » . الوعول : وجوه الناس وأشرافهم(٤) ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لايؤ بهلهم(٥) .

فقوله عليه الصلاة والسلام : الوعول والتحوت مجازان على التفسير الذى ذكره صلى الله عليه وسلم ، لأنه شبه عليه الصلاة والسلام الناس

---

(١) النحائز جمع نحيزه ، وهى الطبيعة

(٢) الغريزه : الطبيعة القريحة والسجية

(٣) المجازات النبوية - ٣٠

(٤) الوعل فى الأصيل التيس الجبلى الذى يسكن أعالى الجبال .

(٥) التحوت جمع تحت ، وهو مقابل فوق

وجلتهم بالوعول ، لأنها تعلو قلل الجبال(١) وتكون فى شعف(٢) الهضاب ، فهى أبداً عالية المنازل ، بعيدة عن المتناول .

وقوله : التحوت ، وهو جمع تحت ، يريد به الخاملين المغمورين والقليلين الذليلين ، لأنهم الطبقة السفلى من الناس ، وهم الذين نزلوا عن غايات العلية ، وقعدوا بمهابط الذلة ، فكأنهم تحت أجلة الناس وأشرافهم ، والأشراف والوجوه فوق لهم .

وتفسيره ﷺ التحوت بأنهم الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم مجاز آخر ، وليس المراد أنهم كانوا تحت مواطىء الأقدام على الحقيقة ، وإنما المراد أنهم كانوا من خمول الذكر . وغموض القدر بحيث يشبهون بالشيء الموطوء لذلته ، والمنبوذ لبذلته(٣) .

ويقول فى قوله عليه الصلاة والسلام — لما أمر برجم اليهودى الذى زنا بعد أن وافق اليهود على أن حد الزنى المحصن عندهم الرجم ، دون الجلد ، وكانوا أنكروا ذلك ثم أقروا به — فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » .

وهذه استعارة ، والمراد إنى أول من أظهر أمرك ، إذ ستروه ، وأذاعه إذ كتموه فأقام عليه الصلاة والسلام الاظهار مقام الاحياء ، والاخفاء مقام الإماته ، لأن الحى ظاهر منتشر والميت خاف مستتر(٤) .

ويقول فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لقد غلغلت النظر يا عدو الله » .

وفى هذا الكلام استعارة ، لأن غلغلة الشيء هو ادخاله فى شيء حتى

---

(١) قلة كل شيء : قمته وأعلاه والجمع قلل وقلال
(٢) شعف الجبال أعاليها .
(٣) لابتذاله — المجازات النبوية ٢٨٦
(٤) المجازات النبوية ٣٩٦

يلتبس به ، ويصير من جملته ، وذلك لا يصح في نظر الانسان إلا عن طريق المجاز والاتساع ؛ فكأنه عليه الصلاة والسلام أراد أن هذا الإنسان بلغ بنظره من محاسن هذه المرأة إلى حيث لا يبلغ ناظر ، ولا يصل واصل ، فكان كالشيء . المتغلغل الذى يدق مدخـــله . ويلطف مسلكه ، ويبعد متولجه(١) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام — في وصية لمعاذ بن جبل — « وأمت أمر الجاهلية إلا ما حسن » .

يقول : وهذه استعارة ، والمراد توصيته أن يحيل أمر الجاهلية ، بنقض أحكامها ، وخفض أعلامها ، حتى ينسى ذكرها ، ويعفو أثرها ، فتكون كالميت الذى نسى ذكره ، وانقطع خبره(٢) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام — وهو يتجهز لغزوة تبوك — « إنى على جناح سفر » .

وهذه استعارة واقعة موقعها ، ومقرطسة غرضها(٣) . لأنه عليه الصلاة والسلام شبه السفر بالطائر الذى قدم بالمطار(٤) .

وجعل الآخذ أهبة المسافر كالكائن على جناح ذلك الطائر ، ينتظر نهوضه(٥) ، ويرقب تحليقه(٦) .

---

(١) متولجة : مدخلة — المجازات النبوية ١٢٧

(٢) المجازات النبوية ١٨٨

(٣) الغرض : ما ينصب هدفا لإصابته ، ومقرطسة : أى مصيبة هدفها ، يقال رمى فقرطن إذا أصاب الهدف .

(٤) المطار : مصدر ميمى من طار ، يريد الذى هم بالطيران .

(٥) يقال نهض الطائر إذا بسط جناحيه ليطير ومصدره النهض والنهوض

(٦) المجازات النبوية ١٣٤

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : «لا تمشوا على أعقابكم القهقرى» وهذه استعارة والمراد لا ترجعوا عن دينكم ، ولا تكفروا بعد إيمانكم ، فتكونوا كالراجع على عقبه ناكسا لقدمه ، وناكصا بعد تقدمه فهذا وجه .

وقد يجوز أن يكون المراد لا تولوا عن الدين راجعين ، وتلتووا عنه منصرفين . فمعبر عن الرجوع بعد الذهاب بالرجوع على الأعقاب ، لأن من عادتهم أن يقولوا رجع فلان على عقبيه ، إذا أدبر عن وجهته ، أو خالف قصد جهته . والمعنيان متقاربان(١) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفئ ما في إنائها» .

وفي هذا الكلام استعارة ، لأنه عليه الصلاة والسلام ، أراد أن المرأة لا ينبغي أن تطلب طلاق أختها لتتصل بالزوج الذي كان لها طلبا لأن تجر حظها إليها ، وتستبد بالنفع عليها ، فتكون كأنها اكتفأت ما في إنائها : أي أمالت الإناء إلى نفسها فقلبته لتستفرغ ما فيه ، وتستأثر عليها به .

يقال : كفأت الإناء إذا كببته ، واكتفأته إذا شربت ما فيه أجمع ، أو أكلت ما فيه أجمع(٢) .

---

(١) المجازات النبوية ١٦١
(٢) المجازات النبوية ٥٣

المجاز المرسل :

يقول فى قوله عليه الصلاة والسلام : « واعلموا أن الجنة تحت البارقة » وهذا القول مجاز ، والبارقة ههنا السيوف ، وليس الجنة تحتها على الحقيقة ، وإنما المراد أن الصبر تحتها لجهاد الكافرين ، ودفاع أعداء الدين ، يفضى بالصابر إلى دخول الجنة ونزول دار الآمنة ، فلما كان ذلك سبب دخولها ، والوصول إلى نعيمها جاز أن يسميه باسمها(١) .

وفى قوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه : « أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا » .

والحديث أنهن لما سمعن منه ﷺ هذا القول ، جعلن يتذارعن(٢) ينظرن أيهن أطول يدا ، إلى أن توفيت زينب بنت جحش بن رباب الأسدى أول من توفى منهن ، وكانت كثيرة المعروف ، فعلمن حينئذ أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بطول اليد كثرة البر ، وبذل الوفر ، لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من الرفد والبر ، أن يعطيه ذلك بيده ، فسمى النيل(٣) باسم اليد إذ كان فى الأكثر إنما يكون مدفوعا بها ومجتازا عليها(٤).

---

(١) المجازات النبوية ١٢٦

(٢) المراد يتذارعن : أى يقسن أذرعهن ليرين أى الأيدى أطول .

(٣) العطاء .

(٤) المجازات النبوية ٦٦

المجاز العقلي :

يقول الشريف في قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من أمير عشرة ، إلا وهو يجيء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، حتى يكون عمله الذي يطلقه ، أو يوتغه » .

إن العمل على الحقيقة لا يطلق المرء من وثاق ولا يوثقه بعد إطلاق ، وإنما المراد أنه يجيء مغلولة يداه إلى عنقه ، فإن كان عمله صالحا أطلق الله عنه ربقة وثاقه وإن كان عملا طالحا زاده الله خناقا إلى خناقه .

وإنما أراد عليه الصلاة والسلام الإطلاق والإيثاق للعمل لأنه سببهما وصلاحه وفساده مؤثر فيهما .

وقوله : « يوتغه » المراد به يسلمه ويهلكه ، يقال : وتغ الرجل يوتغ وتغا إذا هلك ، وقد أوتغه غيره إذا أهلكه . ومنه قولهم : أوتغ فلان دينه إذا عابه وأفسده . ويروى : أو يوبقه(١) والمعنيان متقاربان(٢) .

ويقول في قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أحمدك على العرق الساكن(٣) والليل النائم(٤) .

ووصف الليل بالنوم مجاز، لأن النوم يكون فيه لا منه ، ولكنه لما كان مطية النوم وظرفا له حسن أن يوصف به ، ويضاف إليه . وعلى هذا قول جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم(٥)

---

(١) يوبقه : يهلكه . (٢) المجازات النبوية ٢٩٤

(٣) يراد بالعرق الساكن الطمأنينة وعدم الإزعاج .

(٤) أي النائم صاحبه . (٥) المجازات النبوية ٧٧

الكناية :

يقول فى قوله عليه الصلاة والسلام فى آخر خطبه خطبها ببطن عرفه ، وذلك فى حجة الوداع : « ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع » .

والمراد به إذلال أمر الجاهلية ، وحط أعلامها ، ونقض أحكامها ، كما يستذل الشىء الموطوء الذى تدوسه الأخامص(١) الساعية والأقدام الواطئه فلا يبقى مرفوع إلا وضع ، ولا قائم إلا صرع(٢) .

ويقول فى قوله عليه الصلاة والسلام - فى صفة الخوارج - يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم ، وهو عليهم ، لا يجاوز حناجرهم »

والمراد أنهم لا يعملون بأحكام القرآن وفرائضه، ولا يأتمرون بأوامره، ولا ينزجرون بزواجره ، وكأنه ليس لهم منه إلا الصوت الخارج من حناجرهم . يقول عليه الصلاة والسلام لا يعرف القرآن إلا بهذه(٣) وتلاوته دون العمل بأحكامه وواجباته وقد روى أيضا لا يجاوز تراقيهم(٤) والمعنى واحد(٥) .

---

(١) الأخامص : جمع خمص ، وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.
(٢) المجازات النبوية ١٢٥
(٣) الهذ : سرعة القراءة .
(٤) التراق : جمع ترقوه وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر .
(٥) المجازات النبوية ٣٥٥

صور من تذوق بعض المعاصرين
للبلاغة النبوية

مصطفى صادق الرافعى المتوفى سنة ١٩٣٧م

وينظر الرافعى - رحمه الله - إلى بلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نظرة العالم المدقق، والأديب المتذوق فيجدها والبلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهى من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهى على السهولة بعيدة ممنوعة.

ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هى فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ.

إن خرجت فى الموعظة قالت أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح، فى منزع يلين فينفر بالدموع، ويشتد فينزو بالدماء، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء.(١).

أما فصاحته ﷺ، فهى من السمت الذى لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب، وإن هذبوا الكلام وحذقوه، وبالغوا فى أحكامه وتجويده، إلا أن ذلك قد كان منهم عن نظر متقدم، وروية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الاجادة التى تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعا مقدراً، على أنهم مع

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٢

ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب ومن حذف في مواضع اطناب ، واطناب في موضع حذف ، ومن كلمة غيرها أليق ، ومعنى غيره أرد ، ثم هم في باب المعاني ليس لهم إلا حكمة التجربة ، وإلا فضل ما يأخذ بعضهم عن بعض ، قل ذلك أو كثر ، والمعاني هي التي تعمر الكلام ، وتستتبع ألفاظه ، وبحسبها يكون ماؤه ورونقه ، وعلى مقدارها وعلى وجه تأديتها يكون مقدار الرأي فيه ، ووجه القطع به .

بيد أن رسول الله ﷺ كان أفصح العرب ، على أنه لا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه ، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة ولا يجاوز به مقدار الابلاغ في المعنى الذي يريده ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه ، ولا تستزله الفجاءة ، وما يبده من أغراض الكلام(١) عن الأسلوب الرائع ، وعن النمط الغريب ، والطريقة المحكمة بحيث لا يجد الناظر إلى كلامه طريقا يتصفح منه صاعداً أو منحدراً ، ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد ، والمجيء في كل ذلك من وراء الغاية .

ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلا توفيقا من الله وتوقيفا إذا بعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة ، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات ، وعلى اختلاف مواطنهم ، فمنهم الفصيح والأفصح ، ومنهم الجافي والمضطرب ، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقه ، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم ، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم ، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب ، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ .

---

(١) أي يقتضيه القول على البداهة ، وما يفجأه من أغراض الكلام البعيدة التي تحتاج إلى التقدير والروية وبعد النظر .

فكان صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك على حقه ، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها ، وتبادره بحقائقها . فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم ثم لايكون إلا أفصحهم خطابا ، وأسدهم لفظا ، وأبينهم عبارة ولم يعرف ذلك لغيره من العرب ولو عرف لقد كانوا نقلوه ، وتحدثوا به واستفاض فيهم (١) .

نسق البلاغة النبوية :

يقول الرافعى « إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبى ﷺ على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية ، رأيته فى الأولى ، مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب ، متناسب الأجزاء فى تأليف الكلمات ، واضح الصلة بين اللفظ وضريبة فى التأليف والنسق ، ثم لاترى فيه حرفا مضطربا ، ولا لفظة مستدعاة لمناها ، أو مستكرهة عليه ، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى ، وتأتيا لسره فى الاستعمال .

ورأيته فى الثانية حسن المعرض بين الجملة ، واضح التفصيل ، ظاهر الحدود جيد الرصف ، متمكن المعنى ، واسع الحيلة فى تصريفه ، بديع الإشارة ، غريب اللمحه ، ناصع البيان ، ثم لاترى فيه احالة ولا استكراها ، ولاترى اضطرابا ولا خطلا ، ولا استعانة من عجز ولا توسعا من ضيق ، ولا ضعفا فى وجه من الوجوه .

وهذه حقيقة راهنة دليلها ذلك الكلام نفسه بجملته وتفصيله ، لايجهلها إلا جاهل ، ولا يغفل عنها إلا غافل ، فإذا أضفت إليها ماهناك من سمو المعنى وفصل الخطاب وحكمة القول ، ودنو المأخذ ، وأصابة السر ، وفصل

---

(١) انظر المرجع السابق ٣١٣ — ٣١٥ .

التصرف فى كل طبقة من الكلام ، وما يلحق بهذه وأمثالها من مذهبه ﷺ فى الافصاح ، ومنحاة فى التعبير ، مما خص به دون الفصحاء ، وكان له خاصة، من عظمة النفس ، وكمال العقل ، وثقوب الذهن ، ومن النزعة الجيدة ، واللسان المتمكن — رأيت من جملة ذلك نسقا فى البلاغة قلما يتهيأ فى مشول أغراضه ، وتساوق معانيه لبليغ من البلغاء ؛ إذا يجمع الخالص من سر اللغة ، ومن البيان ومن الحكمة بعضها إلى بعض .

أما اللغة فهى لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة ، والمتصرف فيها بالاحاطة والاستيعاب وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة ، وأقوام مذهبا ، وأبلغهم من الذكاء والالهام .

وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة ، وتبصير الوحى ، وتأديب الله ، وأمر فى الانسانية من فرق الانسانية .

وأين من ذلك الفصحاء والبلغاء وأنى لهم ؟ وما قط عرفنا بليغا سلمت له جهات الصنعة فى كلامه — من اللغة والبيان والحكمة — على أتمها بحيث لم يزغ عن قصد الطريقة ولا تحيفته احدى هذه الثلاث بإدخال الضيم على أختيها فى كلامه ، واستبانة أثرها فيه وغلبتها عليه .

(هذا) والبليغ من البلغاء فى صنعته وبيانه ، كالشجرة المورقة فى روائها ونضرتها حتى تتسق له أسباب من هذه الأوضاع البيانية ، وتستقل له طريقة فى عقدها واخراجها ، فيبلغ أن مثمرا ، والثمر بعد متفاوت فى أشجار البلاغة نضجا وماء وحلاوة وكثرة ، وما أثمرت من ذلك بلاغة عربية ما أثمرته بلاغة السماء فى القرآن الكريم ، ثم بلاغة الأرض فى كلامه ﷺ ، والناس بعد ذلك أجمعون حيث طاروا ، أو وقعوا .

فمن هذه الأوضاع قوله عليه الصلاة والسلام « مات حتف أنفه »(١) وقد روى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : ما سمعت كلمة غريبة من العرب — يريد التركيب البياني — إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ ، وسمعته يقول : « مات حتف أنفه » وما سمعتها من عربي قبله .

وقوله فى وصف الحرب يوم حنين « الآن حمى الوطيس » .

والوطيس هو التنور ومجتمع النار والوقود ، فمهما كانت صفة الحرب ، فإن هذه الكلمة بشكل ما يقال فى صفتها ، وكأنما هى نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا ، وكأنما تمثل لك دماء نارية ، أو نارا دموية .

وقوله فى حديث الفتنة « هدنة على دخن » .

---

(١) أى على فراشه . قال فى القاموس : وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه . وقال فى النهاية : كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته . قلنا : وكل ذلك تحتمله العبارة ، غير أن لها رأيا آخر ، وهو أن موت الرجل على فراشه من غير حرب ، ولا قتال ولا أمر يؤرخ به الموت فى الألسنة ، مما كانوا يأنفون له ، والحتف هو الهلاك فكان صاحب هذه الميتة ، إنما ماتت أنفته وكبر باؤه ، فلم يرفع الموت أنفه فى القوم ، بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت فى عزته ، وعزته كانت فى أنفه ، وأنفه هو الذى كبه الموت . وإنما مجاز العبارة كما يقال فى الكبر ورم أنفه ، وفى العزة حمى أنفه . وفى الدفاع عن الأمم غضب لمطلب أنفه ، وكما يقال غضبه على طرف الأنف ، إذا كان سريع الغضب ، وجعل أنفه فى قفاه إذا ضل ، ونحو ذلك مما يكثر فى كلامهم الذى يؤيد ما ذهبنا إليه سياق العبارة نفسها ، فقد وردت فى قوله ﷺ « من مات حتف أنفه فى سبيل الله فهو شهيد » أى فلا غضاضة عليه مما يكره . انظر الها من من اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٤٧ .

والهدنة الصلح والموادعة ، والدخن تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه(١) .

وهذه العبارة لا يعد لها كلام في معناها ، فإن فيها لو تامن التصوير البياني ، لو أذيبت له اللغة ما وفت به ، وذلك أن الصلح انما يكون موادعة ولينا وانصرافا عن الحرب ، وكفا عن الأذى ، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة ، فإذا بني الصلح على فساد ، وكان لعلة من العلل غلب ذلك على القلوب فأفسدها ، حتى لا يستروح غيره من أفعالها ، كما يغلب الدخن على الطعام ، فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد .

فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة(٢) .

وثم لون آخر في صفة هذا المعنى ، وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به آنيه « السوداء » وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة « الدخن » .

ثم معنى ثالث ، وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها وكانت سر البيان في العبارة كلها ، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذا المعنى .

وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب . فهذه حرب قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها نارا أخرى ، كما يلقى الحطب الرطب على النار تخبو به قليلا ثم يستوقد فيستعر ، فإذا هي نار تلظى ، وما كان فوقه الدخان ، فإن النار ، ولا جرم من تحته ، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى

---

(١) وهو مصدر دخنت النار « من باب فرح » إذا ألقى عليها حطب رطب وكثر دخانها لذلك . وله معان أخرى .

(٢) الممتلئة غيظا وحقدا .

كما ترى ، حتى ليس فى الهدنة التى تلك صفتها معنى من المعانى يمكن أن يتصور فى العقل إلا وجدت اللون البيانى يصوره فى تلك اللفظة لفظة « الدخن » .

وقوله لأنجشة ، وكان يسهر بالنساء فى هوادجهن ، وهو يحدو بالابل وينشد القريض والرجز ، فتنشط وتجد وتنبعث فى سيرها فتهتز الهوادج ، ويضطرب النساء فيها اضطرابا شديدا ، فقال عليه الصلاة والسلام « رويدك رفقا بالقوارير »(١) .

وقوله فى يوم بدر « هذا يوم له بعده »(٢) .

إلى أمثال لذلك كثيرة ، لو أردنا أن نستقصى فى جمعها وفى شرحها واستنباط وجوه البيان منها لطال بنا القول جدا .

وكل ذلك من الأوضاع التى ابتدعها أفصح العرب ﷺ فى هذه اللغة ابتداء ، ولم تسمع من أحد قبله ، ولا شاركه فى مثلها أحد بعده ، وكل كلمة منها — كما رأيت — لا يعدلها شىء فى معناها ، ولا يفى بها كلام فى تصوير أجزاء هذا المعنى ، وانتظام هذه الأجزاء ، وتفض أصباغها عليها(٣) .

والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين .

---

(١) الزجاجات : وكأنهن نور وصفاء ورقة ثم سلامة فلا تسلم إلا بشدة الصيانة .

(٢) يريد أنه أساس تاريخى لما سيبنى عليه ، فليضعوا كل همهم فيه . أو هو يملك الأيام الآتية ، فإذا أحرزوه أحرزوها معه ، وإن خسروه ذهبت بذهابه .

(٣) انظر — اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٥٨ — ٣٦٦ .

دليل الكتاب